

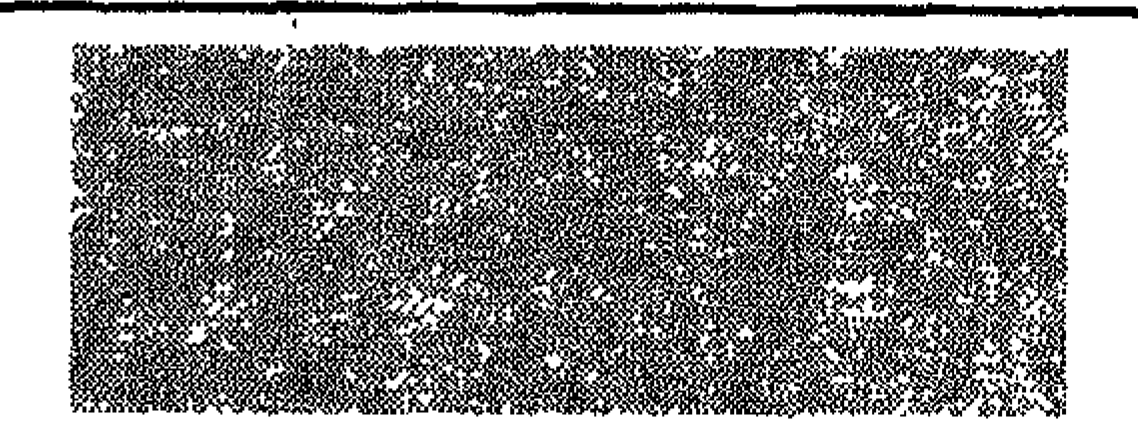
قطاع الثقافة

الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

نقطة الغليان

دكتور مصطفى محمود

دار
أخبار اليوم

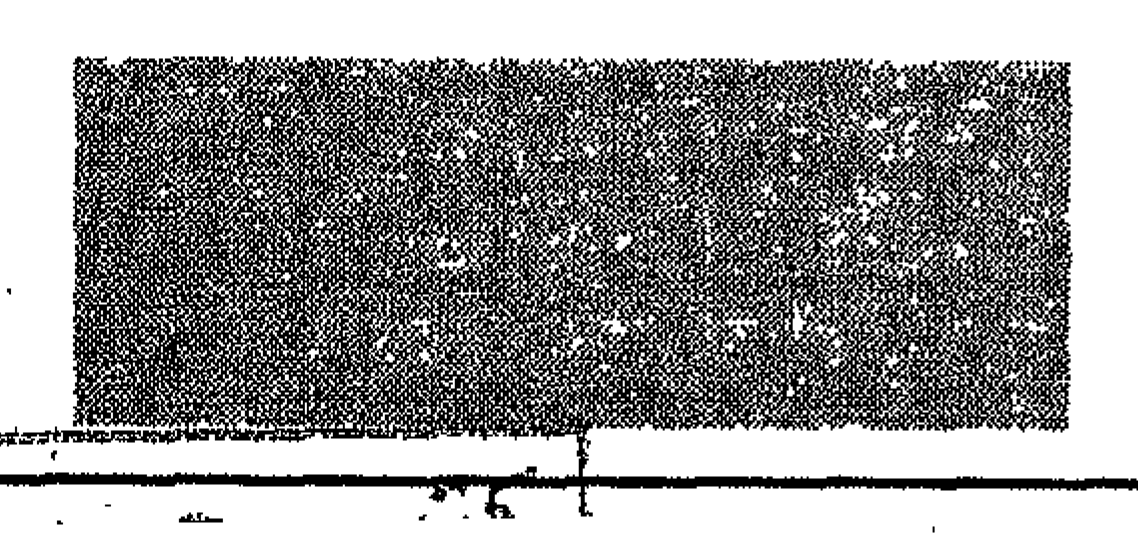


رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

مدير عام قطاع الثقافة :

نبيل أباظة



● العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
● البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبـــار اليــوم
قطـــاع الثـقـــافـــة
جمهـورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليـفـون وفـاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

الدكتور مصطفى محمود

نقطة الغليان

تصـــميم الغـلاف :

د. عـبـدالكريم مـحـمـود

أغلى شىء

وقف فى شارع الحمراء فى بيروت يتلفت ويدس يده بين لحظة وأخرى فى جيبه حيث الألف ليرة.

بحار أعزب عاش عمره سواحًا بين الموانئ يضع قدمه أيامًا على البر ليعود فيتغرب شهورا تائها حتى ليصبح نقطة عائمة فى زرقة بلا حدود لا يربطه بعالم البشر إلا صوت الترانزستور الصغير المعلق على كتفه أو عجيج ركاب الباخرة السكارى آخر الليل.

ومثل كل البحارة قد ورث تلك العادة السيئة من أيام أجداده ماجلان وكولومبس أن يجمع كل ما كسبه طوال غربته ليلقى بـ، بين أحضان أول فتاة يقابلها على رصيف الميناء.

وما أكثر ما ختم ليلته بمعركة بالأيدى مع صاحب البنسيون ثم عاد خالى الوفاض بعين وارمة إلى باخرته.

تلك حياة البحار.

وهذا أغلى ما يملك.

تلك اللذات الحادة المتجددة على أرصفة الموانئ بين ضباب الخمور الرديئة وذلك العنف الممتع الذى ينفق فيه كل شىء أو يخسر فيه كل شىء.

وهل فى الحياة أغلى من ذلك.

ذلك الخطر الموشك.. واللذة الجامحة.. والانفعال الدائم.

وحينما رأى بعض الفقراء يسجدون ويصلون لله على شاطئ الإسكندرية ذات مرة لم يفهم لِمَنْ يسجد هؤلاء الناس ولِمَنْ يصلون.. وكيف يعطينا الله حياة لننفقها من أجل حياة أخرى.

وأين الله هذا الذى يعبدونه؟!

إنه لا يفهم هذا الكلام.

إن معبوده فى كأس نبيذ.. أو بين ذراعى امرأة.

وجنته فورية ولذائذه عاجلة وسعاداته يلمسها بيديه.

وجحيمه أن يحرم من هذه اللذات ويخرج مطرودا بلكمة على أنفه ويفوز بتلك اللذات غريمه أمام عينيه.

يا له من نسيم منعش.

يا لها من ليلة دافئة.

وراح يغنى أغنية إيطالية ويدمدم فى استرخاء لذيذ وهو ينزل الدرجات إلى ستريو على بابه صور عارية.

وعلى البار وجدها.

- ليس أجمل منها ولا فى الأساطير.

يا له من خصر ضامر.. وردف ممتلئ.. وشفتين مثل كرزتين تتدفقان دما وحيوية.

وتصور نفسه يطبق على هاتين الشفتين ويغيب فى هذا الردف.

يا لها من ليلة دافئة معطرة.

يا لها من امرأة تثيره حتى النخاع.

وراح يغنى أغنية بذيئة.

وغمز له البارمان بأنها أميرة إيطالية، ولكن لا يوجد شىء مستحيل لـمَنْ يملك الثمن.

وهمس فى أذنه وهو يصب كأسا.. إنه يمكن أن يدبر له كل شىء بألف ليرة.. العشاء والشراب والبنسيون وجنة من فواكه لبنان وأنهار من نبيذ بوردو ونبع فوار من الشمبانيا الفرنسية الفاخرة وتحفة نادرة من براندى نابليون المعتق مائة سنة فى أقبية الأديرة القديمة.

ومال عليه يروى قصة الذين فقدوا عقولهم بعد قبلة من هاتين الشفتين.

حسنا يا عزيزى البارمان.

لا مانع عندى أن أفقد عقلى أنا الآخر.. وأفقد ما فى جيبى أيضا الآن وفورا.

وألقى بالكأس جرعة واحدة فى جوفه.. وتأبط الفتاة وكأنه يتأبط العالم كله وخرج يغمغم بالأغنية البذيئة.

قالت له الفتاة على الدرج وهى تلقى بشعرها على كتفه:

– إيطالى؟

– لا يا أميرة أحلامى، بل غجرى من وار صوفيا.. من بلاد

الكروم والموسيقى والرقص.. ولكنى أستطيع أن أكون إيطاليا من أجل عينيك.

واختلس قبلة من عنقها وهم يغمغم:

- إنى أستطيع أن أكون دائما كما تريد الحسان الفاتنات أمثالك..

وراح يغنى أغنية روسينو:

امنحينى قبلة أفتح بها الدنيا وأصل بها إلى القمر.

يا قيثارتى الجميلة.. دعينى أعزف على أوتار عودك المشوق لحن حب.

واعتنقا على الباب.

هل حدث زلزال فجأة؟؟

لقد شعر بالأرض تميد تحت قدميه، وسقط جزء من السقف، وانطلقت من كل مكان أصوات الرشاشات والهاونات وقذائف المدفعية الثقيلة والصواريخ واشتعلت السماء بوهج أحمر..

ومرت لفحة من الهواء الساخن على خده كأنها سيف محمى. ورأى شظية تقتلع رأس الفتاة أمامه وتترك حفرة ينبثق منها الدم..

ورأى نفسه يحتضن جثة..

وانبطح على الأرض وهو يرتجف.. وسمع صوت الترانزستور الصغير المعلق على كتفه يتحدث عن معارك مشتعلة بين الكتائب والقوات الوطنية فى عين الرمانة وفرن الشباك والأشرفية وتل الزعتر والحمرا ومنطقة الميناء.. ويحذر المواطنين من رصاص

القناصة الذى ينطلق من رءوس العمارات ليقتل بلا تمييز.. وأوامر بحظر التجول.. وتحذيرات من انقطاع الماء والكهرباء.

وراح يزحف على بطنه ليصل إلى الميناء ورصاص القناصة يئز فوق رأسه، وتوقف ذهنه تماما.

وأصاب الشلل كل تفكيره..

وخُيِّل له أنه يحلم وأن ما يجرى حوله كابوس أو خيالات فى رأس مخمور أو حالة صرع عامة.

وكان يجرى ثم يقفز ثم يهرول.. ثم يعود فينبطح أرضا.. ثم يعود فيزحف كسلحفاة.. ثم يعود فيمرق كسهم..

وحينما وصل إلى الميناء كان يلهث..

وفوجئ بباخرته أصابها لغم شطرها نصفين وأرسلها إلى القاع.. لم يبق له ملجأ سوى مكتب الشركة فى الأشرفية.

وألصق أذنه بالترانزستور فإذا به يسمع أن مكتب الشركة قد نسف وأن الأشرفية تحاصرها الحرائق..

وخرج عليه رجل بكلاشنكوف فى يده جرده من كل نقوده فى لحظة..

وشعر بنفسه فى العراء تماما وقد فقد كل شىء.

كل هذا حدث فى ثوان..

أصبح بعدها.. لا أحد..

فقد العالم الذى ينتمى إليه..

وفقد نفسه وفقد عنوانه وفقد بطاقته وفقد ثروته.. وتلفت حوله فى ضياع كامل..

وكانت صرخات الجرحى والمحتضرين والوجوه التى جمدها الرعب تطل عليه من كل جانب.. وكان عدة مئات من الأهالى قد خرجوا إلى الميناء يلتمسون مهربا من الجحيم وكانت حركة البواخر قد توقفت تماما لتوقف الخدمة والتموين ولهرب العمال من المنطقة التى تحولت إلى ساحة قتال.

ولم تبق إلا بضع سفن شراعية صغيرة يقودها بعض المغامرين فى مقابل مبالغ كبيرة إلى اللاذقية واليونان والإسكندرية.

وتحركت فى صاحبنا غريزة البحار المغامر فتطوع ليقود بضع عشرات من هؤلاء الهاربين فى سفينة شراعية إلى الإسكندرية.

وهكذا عاد إلى البحر.. نقطة لا تكاد ترى فى الزرقة التى بلا حدود.. وحينما كانت السفينة تنساب ناعمة على صفحة الزرقة اللازوردية كطائر اللقلق الأبيض كان يستعرض شريط الحوادث السريع المتلاحق لا يكاد يصدق ما حدث.. وكان يحاول أن يفهم..

ولكن القصة لم تكن قد انتهت بعد..

والساعات القليلة التى مضت فى حوار ناعم مع نسيم البحر كانت مجرد هدنة حرب لأن الأمواج ما لبثت أن ارتفعت وزمجرت الرياح وتمزق الشراع وانكسرت الصوارى.. وخرجت السفينة عن خط سيرها المقرر.. والرحلة التى قدر لها أسبوع امتدت لأسبوعين.. ونفد الطعام وفرغ الماء وبدأت المعركة مع الجوع والعطش.

وأصبح عاديا أن يسمع ذلك الذى يصرخ يريد أن يدفع كل ما يملك فى مقابل نقطة ماء.. وذلك الذى يعطى نصف عمره فى سبيل قطرة شراب يبل بها شفتيه.

كانت قطرة الماء تبدو ساعتها أغلى شىء.

وفى الليلة السوداء التى تحطمت فيها السفينة وغرقت لا يذكر شيئا سوى أنه كان يسبح وحده فى بحر بلون القار الأسود ولا أحد غيره على قيد الحياة ولا صوت ولا بصيص ضوء.

وحينما كانت قواه تخور سمع شفتيه تسألان الرحمة.

مَنْ كان يسأل ولا أحد هناك؟!!!

وسمع قلبه يستغيث.. ويستنجد.. كطفل ملقى فى العراء هجرته أمه..

بمن كان يستغيث ولا أحد هنك سوى أطباق فوق أطباق من الظلمة..

بمَنْ كان يستنجد...؟!!!

لقد كانت شفتاه صادقتين..

وكان قلبه صادق الطلب..

ولكن لا أحد سواه..

أو لعله أخطأ الفهم..

ولعل قلبه أصاب حيث أخطأ بصره فرأى ما لا ترى العين ساعتها كانت الرحمة أغلى شىء..

ومَنْ عنده الرحمة كان أغلى الكل..

ذلك الذى أدرك القلب وجوده وخاطبه مخاطبة الحاضر

المشهود فقال.. يارب.. رحمتك..

واستجاب الرحيم فانتشلته يد قوية وحملته إلى قارب إنقاذ..

وفى سرير بمستشفى الإسكندرية فتح الرجل عينيه ليستأنف الحياة من جديد وقد أصبح رجلا آخر..

رجلا يركع ويسجد ويدعو مع الداعين.. ويصلى مع المصلين..

تلك هى قصة البحار عمرو إسماعيلوفتش الذى عاش حياته يجرى وراء أغلى شىء.. والذى عرف أخيرا ما هو أغلى شىء.

العزيز الذى لا ينال

أغسطس القاتل.

ودرجة الحرارة أربعون درجة، والزنزانة متر فى متر، والسجين يدور حول نفسه منذ ساعات ثم ينهار فى ركن ثم يتجمد كتمثال يحملق أمامه بأعين ثابتة زجاجية تخترق الجدران وتخترق الزمن.

إنه فى انتظار مَنْ يفتح الباب ويقوده لتنفيذ حكم الإعدام..

ربما يحدث هذا اليوم وربما يحدث غدا.. وربما يحدث الآن.

وشريط حياته يمر أمام عينيه سريعا.

إنه صيدلى ورجل أعمال ناجح.. له صيدلية فى أكبر ميادين الكويت يكسب منها أكثر من ثمانية آلاف جنيه شهريا.. ولا يحتاج منه هذا المكسب الضخم أكثر من العمل بضع ساعات هو وزوجته فى الصيدلية كل يوم.

وقد اشتغل فى بيع وشراء الأراضى فارتفع رصيده فى

سنوات عدة آلاف إلى عدة ملايين من الدنانير.

ثم اشتغل فى بناء وبيع الفيلات والعمارات.. ثم فى الأدوات الكهربائية والأثاث ثم فى تجارة العربات القديمة.. فتضاعفت ثروته إلى أرقام فلكية.

وتصور أنه لم يعد ينقصه هو وزوجته شيء.. فكل ما يرغبان فيه يحصلان عليه بإشارة من طرف البنان.. وكل ما يحلمان به يحققانه فى أقل من إغماضة عين.

هكذا كان يتصور حتى شهور قليلة حينما حدثت الحادثة الرهيبة.

وقد بدأت الحادثة بملاحظة بسيطة هى تناقص تدريجى فى أمبولات المورفين بالصيدلية وبإعادة الحسابات اكتشف أن هناك تناقصا مماثلا فى أمبولات الكودبين واللومينال والكاربريتال وفى عدد من المخدرات الممنوع تداولها بدون روشتات ولم يكن أحد يملك مفتاح دولاب المخدرات سواه هو وزوجته.

ولا يد غريبة تعمل معهما فى الصيدلية.

ولم يكن الشك ليخرج عن أحد اثنين.. إما هو.. وإما هى..

وكانت حالتها النفسية فى السنوات الأخيرة تشير إليها بإصبع الاتهام.. نوبات الخدر والسرحان والذهول والرغبة فى الوحدة، ثم نوبات التوتر والعصبية.. ثم نوبات الرغبة فى النوم.. ثم الإمساك المزمن وفقدان الشهية والكآبة والسوداوية.

إنها هى إذن..

ولكن ما السر؟؟

وكتم الأمر فى نفسه ولم يشأ أن يسألها.. وراح يتجسس..

واكتشف أنها تبعث بخطابات منتظمة إلى القاهرة بمعدل خطاب كل ثلاثة أو أربعة أيام وراح يفتش فى أدراجها، وعثر على أحد هذه الخطابات.. وكانت لا تزال تكتب فى صفحته الأخيرة.. لم تنته منه بعد.

ووقف شعر رأسه وتصبب منه العرق باردا وهو يقرأ..

كان خطاب حب ملتهب به سطور عن علاقة مكشوفة وتفاصيل عن اللذة المحمومة التى غمرتها من الرأس إلى القدم حينما ذاقت أول قبلة.. وكاد قلبه يتوقف وهو يقرأ كلماتها:

«صدقنى لم أكن أشعر بأى شعور بين ذراعى زوجى إلا حينما أتخيل أنك هو» وكانت السطور تعود فتحلق إلى نبرة غامضة شعرية حينما تقول: «ما أجمل اللحظة التى لامس فيها سرك سرى. وانطوى نورك فى نورى، وشعرت أنى ذبت تماما وعدت كما بدأت.. مجرد لا شىء»..

وأعاد الخطاب إلى الدرج ويده ترتجف كأنما أصابه مس من جنون..

ولكنه كتم الأمر ولم يشأ أن يفاتحها وطار إلى القاهرة إلى عنوان الرجل.. وكانت المفاجأة الثانية.. الصاعقة.. فقد اكتشف أن الرجل ميت، وأنه مات من خمس عشرة سنة فى حادث تصادم فى طريق مصر الإسكندرية الصحراوى.. أى أنه مات قبل زواجه منها..

هى إذن قصة حب مع رجل ميت. مع شبح.. مع ماض سحيق..

ولكن ما ذلك التجسيد الغريب المثير للمشاعر.. وكأنها تخاطب أعضاء تلمسها.. وتباشر حالات حية.. وتعيش فى حاضر مهيمن يملأ عليها أقطار أحاسيسها.. فتتكلم فى صراحة بذيئة عن ذلك الإحساس اللذيذ بالبلل.. ثم يعود فيحلق بها الخيال المحموم إلى تلك النبرات الشعرية الغامضة.. عن السر الذى لامس السر. والنور الذى انطوى فى النور.. وعن الذوبان حتى التلاشى والعدم.

أيمكن أن يفعل هذا رجل مات وتحلل وأصبح رمة عفنة وترابا منذ خمس عشرة سنة؟

أم أنه أمام حالة جنون كامل؟

تلك المرأة الضامرة الهزيلة ذات الجمال الذابل والنظرات الناعسة الأنثوية.. ذلك الكيان الناعم الحريرى فى الأربعين.. الذى يودع جماله..

أتكون قد أصابها مس من صرع وقد رأت جمالها يذوى؟؟

وألقى فى وجهها بكل شىء..

ونظرت إليه نظرات مخدورة واتسعت عيناها الناعسة الأنثوية وكأنما تيقظت من حلم، وأشاحت بيديها كأنما تزيح الأغطية أو تنفض غبار تابوت..

قال فى صوت متهدج:

- لمَ فعلت هذا؟؟

فأجابت فى نبرة ساهمة لكن ثابتة:

- أنا أعيش حياة لا تطاق..

- أنت تملكين كل شىء..

- نحن لا نحب ما نملك..

- كل ما تحلمين به تجدينه..

- نحن لا نحلم بما نجد، بل نحلم بالعزيز الذى لا ينال..

- ماذا ينقصك؟؟

- الحب..

- ولكنى تصورت أنك تحبين المال حتى الموت.

- وهل يحب الأسمنت والخشب والحديد؟؟

- حياتنا كانت دائما حافلة بالنجاح.

- بل كانت دائما صدئة خالية من لمسة الشعر وكلمة الحنان..

- ما حكاية هذا الرجل.. هل كنت عشيقته قبل زواجنا؟؟ صارحينى بالله..

فابتسمت ابتسامة باهتة.. وقالت فى هدوء:

- بل كان مجرد لقاء مصادفة فى إحدى المكتبات العامة.. تبادلنا فيه بضع كلمات.. لم يلمس يدى ولم ألمس يده.. ولم أره بعد ذلك.. وإنما كنت أقرأ له فى الصحف.. كاتبا مشهورا.. ثم مات فى حادث تصادم.. وقرأت نعيه كما قرأته أنت وكما قرأه كل

الناس.. ثم قابلتك وتزوجنا.. وهذا كل شىء..

– أنت امرأة مجنونة..

– بل امرأة عاقلة تريد أن تعيش حياة حقيقية..

– أليست حياتنا حقيقية؟؟

– إنها مجرد كمبيالات وإيصالات وشيكات وأوراق نقدية تتراكم بدون معنى وخارج إطار هذه الكمبيالات والشيكات.. لا وجود لشىء.. لا إيمان بشىء.. لا حب لشىء.. إن حياتك هى الجنون واللامعقول ذاته وليست حياتى.

– انظرى إلى ما فعلت بنفسك.. مورفين وكودين وهيروين وكوكايين.. أهذه الحياة.

– أفعل هذا لأتحمل الحرمان والجفاف الذى أعيشه معك.

– ولماذا لم تطلبى الطلاق؟

– انتهى العمر وهذا قدرى ولم يعد فى الإمكان البدء من جديد.. وحياتنا هى خطؤنا نحن الاثنين وليس خطأك وحدك.. وربما كان ذنبى أكبر من ذنبك.

– ذنبك أكبر؟؟!! كيف؟

– لأنى كنت أعلم بجريمتى وأستمر فيها.. أما أنت فلم تكن تعلم ماذا تفعل بنفسك.. كنت تحب المال حتى الموت بالفعل.. وكنت صادقا مع نفسك فى هذا الدأب اللامعقول.. أما أنا فظل فى داخلى شعور واع رافض لكل شىء.. لكنى استمررت وحاولت أن أعالج

الخطأ بخطأ ثم أعالج الخطأين بخطأ ثالث.. حتى انتهيت إلى تلوث كامل..

- ماذا تعنين بتلوث كامل؟

فجمعت كل شجاعتها وأكلقت بالمفاجأة الثالثة الصاعقة.

- لن أكتم عنك شيئا.. سوف أضع عن قلبى كل أثقاله وأستريح.. سوف أقول لك كل الحقيقة.

وشعر بأنها سوف تلقى بكارثة فقال مشفقا على نفسه وعليها:

- سعاد.. أرجوك.. لا داعى.

ولكنها استمرت بصوت معدنى بارد ميت كأنها مصفحة تمر فوق أضلاعه:

- لقد خنتك مع كل رجل دخل هذا البيت.. وتصورت فى كل مرة أنى سوف أحب هذا الرجل أو ذاك حتى الموت ثم اكتشفت فى كل مرة أنى أكثر غثيانا ومللا.. وأنى أمام شىء مضجر لا يطاق.. ولم يبق لى فى النهاية إلا ذلك الرجل الشبح الحلم العزيز الذى لا ينال ذلك الجمال الشفيف من وراء الغيب.

ثم انهارت فجأة تبكى وكأنها تتلاشى فى دموعها وتكوم هو مهزوما فى كرسيه وهو يغمغم:

- أنت مجنونة.. مجنونة.

●●●

ولا يعلم كيف مضت به الأيام بعد ذلك.

ولا يستطيع أن يـصف هذه الظلمة التى مازجـته حـتى قضت عليه.

وحينما دبر بعـد ذلك قتلها بالسم. لم يكن سبـب هذ القتل أنها خانته وإنما كـان السبب الحقيقى أنـها قتلته.. وأنها مـزقت الستر عن حيـاته فأصابـته بعدواها ونقلت إليـه شعـورها المرهف بعدم الجدوى.. فـأصبح يعـيش فى خـواء تام وقد سلبـته الإحـساس بالهدف وحرمته لذة الجـمع والنجاح.. فانكشف له الجنون والآلية والعبث فى هذا الجـمع اللامعقـول ـ وهذا الجرى وراء اللاشـىء.. فأدرك أنه لم يعش وأنه لم يكن يعيش فى أى يوم.

نعم.. لقد دبر لقـتلها بإصرار وتعمد وتخطيـط وليس بانفعال ولا بغـضب الزوج الذى أهين فى شرفـه.. وإنما بإحســاس قتـيل يثأر من قاتله.. وبإحساس رجل فقد كل شىء.. فقد نفسه وروحه وجوهره ولذته وحافز كفاحه.

وحينما كانت تموت كانت عيناها تبتسمان.

وكانت تبدو وكأنما تخففت من كل أثقالها.

وقالت له فى نبرة شكر وهى تقبل يده:

– هذا هو العمل الوحيد المعقول الذى صنعته فى حياتك.

وسلم نفســه للنيابة فى ذلك اليوم وكـتب اعترافا كـاملا بخط يده.

وكان تعليق القاضى الـذى أصدر الحكم وهو رجل صوفى إلى زميله:

- إن كل الذين عبروا من هنا إلى المشانق قالوا إنهم أحبوا حتى الموت، البعض أحب الخشب والحديد، والبعض أحب السلطة، والبعض أحب امرأة، والبعض أحب نفسه.. ولا شيء من هذا الحب كان يروى عطشا.. كلهم كانوا كمَنْ يشرب من ماء مالح كلما ازداد شربا ازداد ظمأ..

ولهذا حاولت صاحبتنا أن تسعى بحبها إلى العزيز الذى لا ينال فأحبت الميت فكانت أكثر سقوطا وصرفت وجهها عن الوجود لتسقط فى العدم.. ولو أنها أحبت الحى الذى لا يموت ولو أنها عرفت جمال وجه الله المستور من وراء الغيب لأدركت طريقها ولتغيرت القصة... ولكن.. «ولكن» هذه هى جريمتنا جميعا.

الرجل الذى عرف ربه

كان الرجل مـريضا بمرض عـضال لا يعـرف له علاجا فـكلما جلس فى مكان قال له الناس ـ رائحتك كريهة.. ألا تستحم.

وتردد على الأطباء وفحص الأنـف والجيوب والحلق والأسنان واللثة والـكبد والأمعـاء.. وكانت النتـيجة لا مـرض فى أى مكان بالجسد ولا سبب عضويا مفهوم لهذه الرائحة.

وكان يتردد على الحـمام عدة مرات فى اليوم ويـغتسل بأغلى العطور فلا تجدى هذه الوسائل شـيئا.. ولا يكاد يخرج إلى الناس حتى يتحول إلى قبر منتن يهرب منه الصديق قبل العدو.

وذهب يبكى لرجـل صالـح.. وحكى له حكايتـه فـقـال الرجل الصالح.. هذه ليست رائحة جسدك.. ولكن رائحة أعمالك.

فقال الرجل مندهشا: وهل للأعمال رائحة؟

فـــقـال الرجل : تلـك بعض الأسـرار الـتى يكشف عنهــا الله الحجاب.. ويبـدو أن الله أحبك وأراد لك الخير وأحب أن يـمهد لك الطريق إلى توبة.

فقال الرجل معترفا:

- أنا بالحق أعيش على السرقة والاختلاس والربا وأزنى وأسكر وأقارف المنكرات

قال الرجل الصالح: وقد رأيت فهذه رائحة أعمالك.

قال الرجل: وما الحل؟

قال الصالح: الحل أصبح واضحا، أن تصلح أعمالك وتتوب إلى الله توبة نصوحا.

وتاب الرجل توبة نصوحا وأقلع عن جميع المنكرات ولكن رائحته ظلت كما هى.. فعاد يبكى إلى الرجل الصالح.. فقال له الرجل الصالح:

ـ لقد أصلحت أعمالك الحاضرة، أما أعمالك الماضية فقد نفذ فيها السهم.. ولا خلاص منها إلا بمغفرة.

قال الرجل: وكيف السبيل إلى مغفرة؟

قال الصالح: إن الحسنات يذهبن السيئات فتصدق بمالك.. والحج المبرور يخرج منه صاحبه مغفور الذنوب كيوم ولدته أمه فاقصد الحج.. واسجد لله.. وابك على نفسك بعدد أيام عمرك..

وتصدق الرجل بماله وخرج إلى الحج.. وسجد فى كل ركن بالكعبة وبكى بعدد أيام عمره.. ولكنه ظل على حاله تعافه الكلاب وتهرب منه الخنازير إلى حظائرها.. فآوى إلى مقبرة قديمة وسكنها وصمم ألا يبرحها حتى يجعل الله له فرجا من كربه.

وما كاد يغمض عينيه لينام حتى رأى فى الحلم الجثث التى كانت فى المقبرة تجمع أكفانها وترحل هاربة.. وفتح عينيه فرأى

جميع الجثث قد رحلت بالفعل وجميع اللحود فارغة.. فخر ساجدا يبكى حتى طلع الفجر فمر به الرجل الصالح.. وقال له:

هذا بكاء لا ينفع فإن قلبك يمتلئ بالاعتراض.. وأنت لا تبكى اتهاما لنفسك بل تتهم العدالة الإلهية فى حقك.

قال الرجل: لا أفهم!!

قال الصالح: هل ترى أن الله كان عادلا فى حقك؟.

قال الرجل: لا أدرى.

قال الصالح: بالضبط.. إن عدل الله أصبح محل شبهة عندك.. وبهذا قلبت الأمور فجعلت الله مذنبا وتصورت نفسك بريئا.. وبهذا كنت طول الوقت تضيف إلى ذنوبك ذنوبا جديدة فى الوقت الذى ظننت فيه أنك تحسن العمل.

قال الرجل: ولكنى أشعر بأنى مظلوم.

قال الصالح: لو اطلعت على الغيب لوجدت نفسك تستحق عذابا أكبر ولعرفت أن الله الذى ابتلاك لطف بك.. ولكنك اعترضت على ما تجهل واتهمت ربك بالظلم.. فاستغفر وحاول أن تطهر قلبك وأسلم وجهك.. فإنك إلى الآن ورغم حجك وصومك وصلاتك وتوبتك لم تسلم بعد.

قال الرجل: كيف.. ألست مسلما؟!

قال الصالح: نعم لست مسلما، فالإسلام هو إسلام الوجه قبل كل شىء.. وذلك لا يكون إلا بالقبول وعدم الاعتراض والاسترسال مع الله فى مقاديره وبأن يستوى عندك المنع والعطاء، وأن ترى حكمة الله ورحمته فى منعه كما تراه فى عطائه،

فلا تغتر بنعمة ولا تعترض على حرمان فعدل الله لا يتخلف، وهو عادل دائما فـى جميع الأحوال ورحمـته سابغة فى كل مـا يجريه من مقادير فقل لا إله إلا الله ثم استقم.. ذلك هو الإسلام.

قال الرجل: إنى أقول لا إله إلا الله كل لحظة.

قـال الصالح: تقـولها بلسانك ولا تقـولها بقلبك ولا تقولها بموقفك وعملك.

قال الرجل: كيف؟

قال الصالح: إنك تناقش الله الحسـاب كل يوم وكأنك إله مثله.. تقول له استغفرت فلم تغـفر لى.. سجدت فلم ترحمنى.. بكيت فلم تشفق علىّ.. صليت وصـمت وحججت إليك فـما سامـحتنى.. أين عدلك؟

وربت الرجل الصـالح على كـتـفيـه قـائلا - يا أخى ليس هذا توحيدا.

التـوحيـد أن تكون إرادة الله هى عـين مـا تهوى وفـعله عـين ما تحب وكأن يدك أصـبحت يده ولسانك لسانه.. التـوحيد هو أن تقـول نعم. وتصدع بـالأمر مـثل ملائـكة العزائم دون أن تسـأل لماذا.. لأنه لا إله إلا الله.. لا عـادل ولا رحمن ولا رحـيم ولا حق سواه.. هو الوجود وأنت العدم.. فكيف يناقش العدم الوجود.. إنما يتلقى العدم المدد من الوجود ساجدا حـامدا شاكرا.. لأنه لا وجود غيره.. هو الإيجاب وما عداه سلب.. هو الحق وما عداه باطل.

فبكى الرجل وقد أدرك أنه ما عاش قط وما عبد ربه قط.

قال الصالح: الآن عرفت فالزم.. وقل لا إله إلا الله.. ثم استقم.. قلها مرة واحدة من أحشائك.

فقال الرجل: لا إله إلا الله.

فتضوع الياسمين وانتشر العطر وملأ العبير الأجواء وكأن روضة من الجنة تنزلت على الأرض.

وتلفت الناس.. وقالوا.. مَنْ هناك.. مَنْ ذلك الملاك الذى تلفه سحابة عطر.

قال الرجل الصالح: بل هو رجل عرف ربه.

تحولات الليل والنهار

كـان هذا هو اليوم الأخـيـر فى «التـأبيدة» التى قـضـى فـيهـا السجـين عشــرين سنة من عمره وراء القـضـبـان وهو يعد الأيام يوما يوما انتظارا لتلك اللحظة التى يرى فيها النور.

وقد دخل إبراهيم السجن فى جريمة قتل..

ويذكر إبـراهيم ما حدث دقـيقـة بدقيـقة وكأنما هنـاك شريط سـينمـائى ناطق مـجسم بالألوان يدور فى رأســه ولا يكف عن الدوران.

يذكر ما حدث حينما عاد إلى بيته فى تلك الليلة من يناير مبكرا على غير عادة.. ووقف يقرع الباب..

لم تأتى زوجـتـه مـهرولة كـعادتها لـتفتـح وإنما سمع حـركة مضطربة خلف الباب وسمع أقداما تجرى ولم يفتح أحد.

وعاد يـقرع البـاب وقد تحرك شك قـاتل فى صـدره.. وعادت

الأقدام تجرى فى اضطراب، وسمع لغطا.. ثم أصوات أشياء تقع على الأرض وزجاجا ينكسر ونوافذ تصطفق..

وحمل على الباب بكل قوته ودفعه دفعة هائلة فانفتح وقفز إلى الداخل ليرى زوجته واقفة مذعورة على اللحم وشبح رجل يهرب من النافذة.

وترك كل شيء وانطلق يجرى وراء الهارب.

ولم يستطع أن يلحق به فقد اندس فى زحام المولد وانقطع أثره، ولكنه عرفه وعرف مَنْ هو..

وفى اليوم التالى حمل سكينا تحت جلبابه وذهب إلى محل المكوجى، وقتل مسعد المكوجى بضربة واحدة من سكينة قطع بها شرايين رقبته، وحينما حاول صاحب المحل أن يدافع عنه قتله هو الآخر.. ثم تكاثر عليه الناس وانتزعوا السكين من يده وسلموه للبوليس..

ومن ذلك التاريخ وهو ملقى بالسجن.

وحكم عليه القاضى بالمؤبد.

ومضت عليه عشرون سنة كأنها عشرون قرنا وهو يعض على نواجذه من الغيظ لأنه دخل الزنزانة قبل أن يقتل زينب.

كان فى عزمه أن يقتل الاثنين، وقد بدأ بالرجل وفى نيته أن ينثنى مسرعا ليقتل المرأة ويستريح.. ولكن الحوادث التى تلاحقت وقتله لرجلين ثم تكاثر الناس عليه ثم اعتقاله، غير مجرى الأمور

وأعطى المرأة عشرين سنة من العمر وحكم عليه بعشرين سنة من الكظم والغيظ قضاها لا يفكر فى شىء إلا لحظة يحز رقبتها بسكينه.

زينب التى عرف فى حضنها اللذة والسكن والراحة.. والتى أعطاها رزقه وعرقه وشبابه.. خانته.

كم بات يحلم بأن يقطع لسانها الذى كان يقول له.. بحبك يا إبراهيم.. وكم راح يهذى بأنه يغمس السكين فى قلبها الذى كان يخفق فى حضن قلبه.

وكان يراها دائما فى خياله، جميلة طرية ريانة، كأنها ثمرة يانعة فيها رائحة الحقل.

وكان يراها دائما فى حضن الرجل الآخر تقبله وتوشوشه كما كانت تقبله وتوشوشه.. وكان يسمع غنج صوتها فى ظلام زنزانته فيفور الدم ويغلى فى شرايينه.

وكان يسمع النبض يدق فى دماغه.. ولكنه عاش يكظم ويكتم فى انتظار اللحظة التى يخرج فيها إلى النور.

وحينما جاء السجان وفتح له الباب وقال له.. مبروك يا إبراهيم.. إفراج.. خرج كالريح.. خرج كما يخرج الغضب من فم الغضبان، وكان أول شىء عمله أن توجه إلى بيته والسكين تحت جلبابه.

وكان باب البيت مفتوحا...

وأسرع داخلا.

وكانت المرأة راقدة مريضة تسعل.

وتسمر فى مكانه حينما أطل فى وجهها.. وشعر بدمائه تبرد.. ثم تتثلج.. وتجمدت مشاعره.. وأحس بجنونه يتبخر من رأسه.. ثم أحس برأسه ذاته يتبخر.

لقد رأى امرأة أخرى تماما غير تلك التى كان يحلم بقتلها فى زنزانته.. رأى عجوزا عجفاء سقطت أسنانها وانحنى هيكلها وتجعدت بشرتها.. ذهبت النضارة وخبا الجمال.. وجف العود الريان.. وتيبست الأطراف.. لم يبق شىء يقتله أو يقتل الناس أنفسهم من أجله.

وخمدت الغيرة فى قلب الرجل فجأة كأنما هبت عليها ريح جليدية.. وحل محلها مزيج غريب من الذهول والدهشة والإشفاق.

ولم يدر الرجل ماذا قال لامرأته، فقد راح يقول أى كلام ثم ما لبث أن تسلل خارجا وقد أصبح رجلا آخر غير الذى دخل السجن من عشرين عاما.

وكما تغير الرجل فجأة فقد تغيرت الدنيا أيضا فى عينيه فجأة وراح يكتشفها كأنه مولود يحبو ويتعرف على الدنيا لأول مرة.

حينما جلس يشرب الشاى فى القهوة علم بأن زملاءه السباكين قد هاجروا للعمل فى الخليج والسعودية والكويت.

وقال له القهوجى: إن السباك يعمل الآن بمرتب شهرى خمسة

آلاف ريال فى السعودية أى ألف جنيه شهريا.. أما صغار العمال الذين آثروا البقاء فى مصر فإن الواحد منهم يكسب من السباكة مائة وخمسين جنيها فى الشهر.. وإن السباك مطلوب فى كل مكان وإن الذى يعرف كيف يصلح حنفية يسمى نفسه باشمهندس ويركب عربة ملاكى. وسرح إبراهيم بعينين ذاهلتين.

كان كل شيء يتغير ويتبدل بسرعة هائلة بينما هو رابض كالتمثال فى زنزانته يمضغ حقدا أسود لا يريد أن يزول.

المرأة أصبحت غير المرأة.

والرجل غير الرجل.

والصنعة غير الصنعة

والبلد غير البلد.

بينما هو تجمد كتمثال من حجر صوان يجتر عذابا لا ينتهى.

يا لها من لحظة تافهة تلك التى توقف عندها وكبل نفسه بأغلالها عشرين عاما.. كيف يحدث أن يقتل الناس بعضهم بعضا لأمور بمثل تلك التفاهة؟

لقد قتل رجلين من أجل زينب.. ومن أجل حبه لزينب.. ومن أجل شهوته لزينب.. ومن أجل غيرته على زينب.. فأين زينب الآن؟

وأين حبه لزينب..؟

وأين شهوته لزينب..؟

وأين غيرته على زينب..؟

لقد تبخرت زينب وكأنما كانت وهمـاً .. وخلفت شيئا مثل رماد المدفأة وتبخر حبه لزينب كما تتبخر الأحلام.

وتبخرت شهوته كما يتبخر مستنقع فى يوم صيف.

وخمدت غيرته كما تخمد شعلة أكلت نفسها.

يا لها من أمور تافهة يتقاتل من أجلها الناس.

كم تبـدو تلك الأحـداث الهـائلة واللحظات الـرهيـبة المفـعمـة بالغضب.. كم تبدو له الآن على البعد أحداثا صغيرة.

أما كـان أولى به أن يطلقـها وأن يذهب كل منهـما لحـاله وأن يجرب كل منهما حظه من جديد دون أن تراق كل تلك الدماء.

ولو أنه بدأ حياة جديدة فى تلك الظروف من الرخاء لتزوج مَنْ هى أجمل من زينب وأرق من زينب وأوفى من زينب ولكانت عنده عـربة.. ولربما هاجـر مع الذين هاجـروا إلى السـعـودية والخليج واقتنـوا الثروات ، وذاق لذة الترحـال والتنقل والأسفـار بدلا من ضياع العمر فى الزنزانة وذل المؤبد.

يا له من أمـر تافـه ذلك الذى عـشـت أطحنه تحت أضـراسى عشرين عاما..

ودلق إبراهيم بقية فنجان القهوة فى جـوفه وقام ليتوضأ على

صوت الأذان وقد شعـر بأنه أصبح خفيفا مـجنحا يكاد يطير مع كل خطوة.

ومضى إلى المسـجد ليصلى.. وكأنه رجل آخـر غير ذلك الذى عرفه وعاشره ستين عاما.

وعجب من أمر نفسه.

وتساءل وهو يخطو إلى المسجد :

كـيف يحـدث فى لحظة أن يولد العـقل من الجنون كـمـا يولد النهار من الليل؟ وهل يحتاج مثل ذلك الميلاد أن يدفع الإنسان ذلك الثمن الباهظ من زهرة العمر؟

الزهـور البلاستيك

باقـة من الجمـيلات فى حلقـة أكـواب البيـرة فى ركن بنادى الجزيرة.

أمسية صـيف والصدور عارية والثياب من الشيـفون الشفاف الهفهاف.

الجلسات مسترخـية وأنوار الأباجورات الحمراء تنعكس كلهب خافت على الشعور الذهبية المرسلة.

وأنت لا تعرف هل تلك الشعور ذهبية بالفعل أم هى مصبوغة، أم هى باروكات.. وكـذلك الأهداب الطويلة كالسهـام القواطع هى الأخرى أنواع من الملصقات.. كذلك الورد على الخدود.. والوميض المتلألئ على الجـباه.. والطراوة المنعـشة فى الأيدى والأنامل.. هى مستحدثات جديدة من صنوف الماكياج.

من الصعب أن تعرف حقيقة واحدة إلا إذا وضعتها تحت الدش.

وأصـعب من ذلك أن تعـرف مـاذا تحت تلك الأقنعـة التنكرية المرسومة بعناية على الوجوه.

وأصـعب من ذلك أن تعـرف مـاذا تحت القشـرة.. ومـاذا فى القلوب.

فلنستمع إلى الحديث الهـامس والثرثرة الضاحكة حول كؤوس البيرة، لعل الألسن تبوح ببعض تلك الحقائق.

ولا يهم مَنْ هى مَنْ.

ولا مَنْ تجيب على مَنْ.

ولا مَنْ تضحك ومَنْ تسمع.

ودعنا من الفضول التافه حول الأشخاص.

ودعنا من تلك الرغبة المراهقة فى أن نخطب ود هذه أو تلك.

ولنستمع فى براءة الذى يريد أن يخطب ود الحقيقة.

هذان الرأسان يمـيلان على بعـضـهمـا البعض وأحـدهما يومئ بعينه إلى شخص بعيد:

– أتعرفينه؟

– أوه.. إنه زوج مـيمى.. إنه فـظيع.. تصورى أنه يـمنعهـا من السهر فى الخارج ويمنعهـا من الرقص ويحرم عليها لبس البكينى فى جمام النادى.

– أوه.. فظيع.. وأين تلبس البكينى؟.. فى المطبخ؟

– مسكينة إنه يمنعها من نزول الماء بالمرة.

– يا حرام.. وماذا تفعل الواحدة فى أغسطس؟

– تأكل جلاس..

– ومع ذلك فـهـو لا يحـرم نفـسـه من مـغـازلة بنات الناس بالتليفون فى نص الليل.

– أوه.. هل فعلها معك أنت أيضا؟

– إنه لم يدع واحدة إلا غازلها..

– هل اشتكى لك من برود زوجته فى الفراش؟

– هذه أول الأسطوانة.

– كل الرجال على هذا المنوال.. سفلة لا أمان لهم.. يحللون لأنفسهم كل شىء ويحرمون على الزوجة أن تتنفس..

– لكن بينى وبينك ميمى تتنفس على راحتها أوى رغم كل هذه الحراسة المشددة.

– قصدك الممثل المسبسب إياه.. ولا صاحبنا بتاع الكورة.. ولا شيفروليه ٧٧، ولا الثلاثة؟؟.

– قصدى الأربعة..

– مين الرابع؟؟.

– النادى الدولى..

– مش معقول.. إنها لا تترك فرصة.. طبيعى إنه لا يبقى للزوج المسكين بعد هذا النشاط إلا البرود فى الفراش.

– ليس مسكينا يا عزيزتى.. إنه يجد دائما الحرارة التى يفتقدها فى أى فراش آخر هنا.. أو هناك.

– لا أحد منهما يضيع وقته.. علام تضحكين؟

– على الأوامر المشددة بمنع لبس البكينى فى الحمام..

– عندك حق فى حين هى تخلع ملابسها كلها فى النادى الدولى..

– لا يستطيع رجل أن يحكم امرأة.. ومهما أحكم غلق الأبواب.

ومهمـا تربس النوافذ سوف تجد المرأة فرصـة.. ولو أثناء مشوار لخلع ضرس.

- الطبيب أحسن صدقـينى.. كل هذه العنجهية الزوجيـة رجعية وتخلف من أيام الحريم.

ونطقت كلمة «رجعية» بحرف الغين «غجعية».

فمالت عليها صاحبتها لتقول فى أذنها:

- أنا ملاحظة أنك تقدمية أوى..

- أوى.. أوى يا حـبيـبتـى.. على أقصى اليـسـار.. شيـوعيـة زوجية.. كل شىء مباح للرفاق..

- ما تاخدونا معاكم فى الحزب..

فضحكت صاحبتنا وتمايلت وهى ترشف كأسها هامسة:

ناخد مين يا ثريا هانم.. ده أنت حزب لوحده.

ودخلت امرأة فى الخـمسين تلبس «بنطلون محـزق وباروكة» وقام الكل.. وطرقعت قبلات الشوق وتجاوبت التحيات..

- أهلا تانت ألفت..

- واحشانا موت يا تانت ألفت..

- فين كل الغيبة دى يا تانت ألفت؟؟

- كنت باعـمل ديكور جديد للـشقـة.. كلفتـها ١٥ألف جنيـه.. رميت السـجاجيـد الشنوا وفرشت مـوكيت ألمانى مسـتورد جنان وغطيت الجدران بورق دهب فلورسنت مذهل..

- وما الداعى لكل هذه الكلفة؟؟

- تغـيـير يا حبيـبتى.. تغيـير.. لا بد من ثورة تغيير من حين

لآخر مادمنا مش قادرين نغير الراجل نغير السرير..

– لا.. نظرية فعلا..

– تانت ألفت دايما عندها نظريات هايلة.

– برافو يا تانت ألفت أرجوكي خديني معاكي في مدرسة التغيير دي..

– لا يا مدام ثريا عيب.. دنا تلميذتك.. ده أنت بتغيري وشك تلات مرات في اليوم.. دا أنا بشوفك ما اعرفكيش..

– أخجلتم تواضعنا...

– منين البنطلون ده يا مدام ألفت؟؟

– عجبك؟؟

– يجنن..

– من أمريكا رأسا بالتليكس وحياتك..

ترفع البنطلون فتكشف عن خلخال زجاجي أحمر.. وتتزاحم الأنظار على الخلخال العجيب.. بينما تقول تانت ألفت في اختيال:

– خلخال خضرة.. آخر موضة في باريس.

وتهز ساقها فتصطلك الخلاخيل بجرس زجاجي..

تدور أكواب البيرة وتعود الثرثرة..

– مدام شهيرة لا تأتي منذ أيام..

– مريضة في البيت عاودها الدور العصبي.

– سمعت أن زوجها رفض استمرارها في علاج التدليك.

– وهي طبعا لا تستطيع أن تستغني عن المدلك ولا عن التدليك.. ولهذا عاودها الدور.

- سوفاج..
- الحياة مملة..
- إيه رأيك نحضر الليلة دى الزار اللى عاملاه مدام شريفة.
- فكرة هايلة..
- أنا حا اتعشى فى اللانترن..
- إيه رأيك فى برتيته كونكان...
- أنا حايجينى دور عصبى..
- تعالوا نشوف الفنجان عند صاحبنا الإيطالى.. «فردى» كلمته لا تنزل الأرض..
- الحياة مملة..

إحداهن تدير كاسيت ريكوردر للمغنية داليدا.. الأغنية تقول بالفرنسية:

خذنى بين أحضانك حتى أذوب وأتحول إلى دموع
مزق عنى ثوب العادة
واهتك ستر الملل
دعنى أذوق الفوضى
وأحطم كل شىء
وأقول إنى قد عشت ذات مساء
ولدت من جديد فى حضن حبيبى..
صرخات استحسان من المجموعة.
تصفيق.. خبط على الموائد..
عيون بليدة متعبة من السهر تتألق وكأنم صحت فجأة..

تدور أكواب البيرة من جديد..

بنات من الجالسات يشاورن إلى رجلين يجلسان بعيداً فى ركن منعزل..

– هاى..

وإشارة من أحد الرجلين..

– هاى..

بينما الآخر غارق إلى أذنيه فى كتاب لا يحفل بشىء..

زميله يشده من أذنه..

– يا أخى كفاية كتب.. مَنْ يترك هذه الزهرات اليانعات الفاتنات ويغرق فى هذا الورق الأصفر البالى؟؟

فقال الرجل فى لامبالاة:

– هن زهرات بلاستيك.. لا رائحة ولا نضارة ولا حياة.. هؤلاء النسوة هن نهاية الإمبراطورية الرومانية.

فقال الآخر وهو يفرك جبهته متحيراً:

– بتقول إيه؟.

– هى ملاحظات تاريخية..

– لا أفهم..

– أعنى كلما ظهرت نسوة يتكلمن هكذا فتلك دلالة على نهاية حضارة وبداية حضارة.. علامة على أن هناك عصرا يموت وعصرا يولد..

– مازلت لا أفهم شيئاً..

– أحياناً يموت الميت ويتأخر إعلان وفاته.

- ماذا تقصد؟

- أقصد هذا هو حالنا.. ولكن إعلان الوِفاة لا بد قادم.. وإعلان ميلاد العصر الجديد قادم فى أعقابه.. ولن يطول الانتظار..

قال صاحبنا الذى يتعجل الملذات المضمونة:

- أنا لا أفهم شيئاً من هذا الكلام الفارغ.. عن إذنك.. سوف أذهب أنا للزهور البلاستيك.. وخليك أنت مع كتابك..

وذهب صاحبنا لينضم إلى حلقة البيرة.

وبقى الرجل مع كتابه..

الرصـاصـة

كان الرجل يجلس مكتـوف اليدين معصوب العـينين لا يعرف أين ولا متى ولا مَنْ الذى يضع فـوهة المسدس على رأسه.. وإنما هو ظلام حالك.. وصوت أجش يخرج من بطن الظلمة:

– هل أنت محمود السويفى؟

– نعم.

– تعـتـرف أنك كافـر مـارق زنديق خـارج على دين الله وأنك تساند دولة الكفر وتؤيدها؟

– أنا أقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فكيف أكون كافرا؟

– لو كنت تقول إن محمدا رسول الله بحق لاتبعته.

– أنا أتبعه قدر طاقتى.

– كان رسول الله يطلق لحيته وأنت تحلقها فكيف تدعى اتباعه؟

- وكان رسول الله يركب البغلة وأنتم تركبون القطار فهل خرجتم على السنة بذلك.. إن معنى السنة الأفعال الدالة على الخلق والقيم وليست أية أفعال.. واللحية لا تدل على شيء.. وكاسترو ملحد ويربى لحيته.. وجيفار أنكر وجود الله فى جميع أحاديثه فهل تنفعه لحيته.. وراسبوتين راهب الفسق والعهر له أطول لحية.. أنا لا أفهم ماذا تعنى لحية يصنعها ويقصها مقص حلاق فى دقيقة.. وماذا تضيف أو تعطى للإسلام.

- تعترف أنك تعيش فى عالم جاهلى؟

- وأشنع من العالم الجاهلى..

- عالم سافل منحرف ضال.

- وأشنع من ذلك.. مجنون ولا معقول بدليل وجود سيادتك فيه.

- ولكنك واحد من الذين يقودون هذا العالم بالكلمة والأمر والتوجيه والإدارة.

- أحاول أن أصلح منه قدر استطاعتى.

- أنت تشتغل فى الإعلام فما رأيك فى الإعلام.. ما رأيك فى حال التليفزيون والسينما والمسرح والصحيفة؟

- تسالى يا لب.. ولكننا نحاول من حين لآخر أن نقول شيئا ذا قيمة.

- ثم يضيع الكلام فى طوفان الرقص والطبل والزمر والهزل.

- هذا شأن العالم دائما من خمسة آلاف سنة كانت الراقصة تكسب أكثر من الكاتب والطبال يكسب أكثر من الخباز والنجار والحداد.. ولو أنك دعوت أينشتين اليوم لندوة علمية.. ثم دعوت امرأة عارية لحديث صحفى، لترك الجمهور أينشتين وعلمه ولتجمعوا حول المرأة العارية بالألوف.. وهذا ليس ذنبنا.. وإنما سببه أن أكثر الناس من البهم ومن أهل الهوى ومن عبيد الشهوات ـ وهم لذلك يشجعون التافه من الأمور وينصرفون عن الجاد.

- ولهذا جئنا لنصلح العالم.

- ليس بالرصاص ولا بالمدافع الرشاشة ولا بالمعتقلات والإرهاب تصنع الفضائل.. لن تجعل من الناس مسلمين مثل أبى بكر بقرار وزارى ولن تصلح هذا العالم برفضه وتكفيره وإطلاق النار عليه، سيادتك لست مسلما وإنما مجرم.

- أنا أقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فكيف أكون مجرما؟

- أنت تقول لا إله إلا نحن ومَنْ خالفنا كفر ومَنْ خرج عنا تزندق ومَنْ عارضنا عليه اللعنة. أنت طالب سلطة وسيطرة وجبروت وتلك شهوات نهى الله عنها فقال لنبيه : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ (٤٥) ﴾ [ق] وقال له : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [الغاشية] وحدد دوره قائلا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ (٧) ﴾ [الرعد].. ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ (٤٨) ﴾ [الشورى].. وأطلق الحرية لكافة الناس فى الاستجابة أو الرفض فقال: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف].. وقال: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾

[الكافرون].. وقال: ﴿ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (١٠٥) ﴾ [المائدة].. ثم أفرد الله نفسه بالعلم والبت في قضية التكفير، فقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾ [النجم].. وقال : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ [النجم]ولكنكم تزكون أنفسكم على الأمة كلها.. وتكفرونها كلها وتدعون لأنفسكم العصمة.

– تعترف أنك رجل كثير الأخطاء وأن ماضيك مثقل وحاضرك لا يبرأ من الشبهة؟

– كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين عند الله التوابون.. وأنا أتوب إلى الله كل يوم وكل ساعة.

– ولكنك شربت الخمر وزنيت.

– لست أدَّعي عصمة ولا ولاية ولا نبوة ولا قيادة وما أنا إلا صارخ في برية يحمل على ظهره أوزاره ولكنه يرتجي المغفرة ويدعو إلى الخير.

– تدعو إلى العفة وقد زنيت وتنهى عن الخمر وقد شربتها فماذا يكون شأنك إلا كما قال رسول الله عن علماء آخر الزمان بأنهم كغثاء السيل لا خير فيهم.

– صدق رسول الله.. والله إننا كغثاء السيل ولكن ما حيلتنا وقد طم السيل وجرف الجميع ولوث الجميع وما بقي واحد إلا مسته شبهة أو تلوث منه البال والخاطر.

- هذا اعتراف بأن هذا العصر لا يصلح إلا أن يكون حطبا لجهنم.. أليست هذه إدانة شاملة؟.

- لا يدين إلا الديان ولا يحكم بالنار إلا رب النار، وقد قال ربنا عن نفسه : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾ [طه]. وقال عن نفسه إنه لا يسأل عما يفعل.. وقال إنه يغفر لمَنْ يشاء ويعذب مَنْ يشاء وقال رحمتي وسعت كل شيء.. وليس من حقك أن تحجر على رحمة الله ولا أن تدخلنا النار وتدخل نفسك الجنة إلا إذا كنت قد تألهت وتصورت نفسك وصيا على العالمين.

- لقد اعترفت بأنك شربت الخمر وزينت.

- مَنْ لم يرتكب منكم خطيئة فليرمنا بحجر.

فأجاب الرجل في زهو واختيال:

- أنا لم أرتكب خطيئة.

- تلك الدعوى هي كبرى خطيئاتك وسوف تحاسب عنها حسابا عسيرا.

- أبعلماء أمثالكم نحارب الكفار؟

- إذا كنا سيئين فالكفار أسوأ والله ينصر السيئ على الأسوأ والله عليم بضعف الناس وهو القائل: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا (١٦) ﴾ [التغابن].

- وهو القائل: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢) ﴾ [آل عمران].

– ذلك القـول للأنبيـاء ولست منهم، إنما أنا بشر عـادى أخطأ وأصاب وعمل عملا صالحا وآخـر سيئا عسى الله أن يتوب عليه.. ثم خبرنى لماذا تجـعل من نفسك منتقمـا.. وهل أعطاك الله الوكالة عنه أم أعطيتها لنفسك وبأى حق تتغطرس علينا هكذا وتطلق التهم عن يمين وعن شمال وأنت حدث قليل التجربة لم تتجاوز السابعة عشرة من عـمرك ثم تفتينا فى الإسلام وأنت لم تحـفظ بعد قرآنا ولا درست سنة ولا جلست إلـى علماء ولا سـهـرت على مـرجع وتختال بعـفتك وطهارتك وأنت لم تتعرض بـعد لما تعرضنا له من مغريات.. وما حكم عفة بلا مكابدة وطهارة بلا ابتلاء إلا أن تكون مراهقة وغرورا..

– أنتم تلوون ألسنتكم بالعلم وأنتم زناة فاسقون مكانكم جهنم وسأشيعك بهذه الرصاصة إلى مكانك.

– أعرفت مكانى الذى سـتشيعنى إليه بـرصاصتك.. ذلك والله غرور آخر وادعاء بعلم الآخرة بعد ادعائك لعلم الدنيا.

– ابك على مصيرك.

– والله ما ألقى الله بـاكيا بل ألقـاه راجيـا رحمـته.. وهو الذى أنشأنى من تراب الأرض ويعلم ضعفى وهو القائل ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء] والله ما أكف عن الأمل فى رحمة الله أبدا.

– ذلك ظن الذين كفروا.

– بل هو قول الذين آمنوا وسيخلف الله ظنك والله خلاف الظنون.

– وشد الرجل أصابعه على زناد المسدس فى غيظ ليقول فى كلمة أخيرة:

– ألك مطلب أخير؟

– أنت أهون عند الله من أن أطلب منك شيئا وهذه الدنيا أتفه من أن ألتفت إليها بمطمع.

– أحاقد أنت علىَّ ؟

– بل إنك لتحسن إلىّ بهذه الرصاصة وتتصدق علىّ بهذه الشهادة وتعطينى الفرصة لأدفع فى كلمة حق أغلى ثمن، وتلك نعمة من الله أشكره عليها، الحمد لله على ما أعطى وما أخذ.

وضغط الرجل على الزناد فى غيظ ، فانطلقت الرصاصة وسقط رجل وزاد عدد المجرمين واحدا.. ولم ينصلح فى العالم أى شىء بل زاد ضلالاً على ضلال.

حكاية الدكتور إسكندر

كان الدكتور ألبير إسكندر يلقى محاضرة على تلاميذه فى نظرية ردود الأفعال.

وكان جموع الطلبة يملأون عنبر الأمراض العقلية ويحيطون بأستاذهم وقد تدلت السماعات من أعناقهم وكل واحد يحاول أن يتسلق برأسه على كتف الآخر ليشاهد الشروح التى يقدمها الأستاذ على المرضى.

قال الأستاذ فى اعتداد:

- إن هؤلاء المرضى هم أصدق دليل على النظرية السلوكية.. فكل منهم يخرج بعد شهور من هذه الزنازين بشخصية مختلفة تماما غير الشخصية التى دخل بها.. كل منهم يصبح شخصا آخر تماما.. ولو حاولت أن تتعرف عليه لما عرفته وكأنما خرج من بطن آخر غير بطن أمه.

وأردف الدكتور معلقا بسخريته الإلحادية المعروفة وموجها كلامه إلى طالب بلحية.. هذا المريض أمامك تقرأ فى أوراقه وصفين لشخصيتين مختلفتين تماما.. شخصيته الإجرامية التى دخل بها.. والشخصية الثانية التى يخرج بها اليوم بعد الصدمات الكهربائية.. ولو كنت أنت الله لما عرفت أيا من هذين الشخصين تبعث وأيهما تحاسب وأيهما تعاقب.. وسوف تقف أمامه فلا تدرى أيا من شخصيتيه هى حقيقته.. ولكن هنا مفتاح اللغز.. فلا توجد شخصية حقيقية وشخصية مزيفة.. بل لا توجد حقيقة ثابتة اسمها فلان.. وإنما نحن أمام ردود الأفعال وأنماط سلوكية تتداول على الإنسان كما تتداول الفصول بأجوائها المختلفة على الأرض وكما تتعاقب تحولات الليل والنهار.

وهذا هو الإنسان.. مجموعة ردود أفعال ولا أكثر وما نسميه روحا ونفسا وعقلا هو نتاج تراكمات هذه الردود العصبية وتداخلها وتعقدها وترابطها فى ميول ورغبات ثابتة هى الغرائز والمشاعر والعواطف.

الإنسان ليس أكثر من جهاز إلكترونى ومجموعة أسلاك وكابلات ومولدات طاقة وشاشات رادارية للمدركات السمعية والبصرية.

ولا حاجة بنا إلى افتراض روح ونفس وخلود بعد الموت وحساب وبعث.. ولا حاجة بنا إلى افتراض خالق.. فنحن أمام مادة صرفة وما نرى أمامنا من عقل وعواطف وضمير.. ما هى

إلا صفات هذه المادة بعينها فى مستوى من مستوياتها.. وكما اجتمعت هذه المادة لتؤلف إنسانا، فإنها تعود فتنفرط لتؤلف ترابا دونما عودة ودونما بعث.. والقول بأى شىء غير ذلك هو محض هراء غير علمى لا يستند على أساس.

وجميع الحالات المرضية حولكم تقدم الدليل.. فكل هذه الحالات العقلية تستجيب للعلاجات المادية بالصدمات الكهربائية والحقن والأقراص والمخدرات والمسكنات.. وما لا يستجيب منها لهذه العلاجات يتحسن بالتدخل الجراحى الذى يستأصل فصا معينا من المخ أو يقطع مسار حزمة عصبية بعينها وهذا يدل على أننا أمام ماكينة يمكن إصلاحها كما يمكن إتلافها بقطع سلك أو استبدال قطعة غيار.

وتسرى الهمهمة فى الطلبة.. ولكن لا أحد يجد فى نفسه الشجاعة ولا المادة العلمية ليناقش.

وتبدو ابتسامة راحة على شفتى الدكتور وقد أطلق هذه الكلمات وكأنما استعاد توازنا مفقودا أو أزاح شكا جاثما على صدره.

هكذا يشعر دائما بتلك الراحة كلما انتهى إلى تلك النتيجة.. إنه لا حقيقة هناك.. وكأنما تحرره تلك النتيجة من قلق داخلى يعذبه.

ويتفرق الطلبة وقد ازدادوا بلبلة.. ولا يبدو عليهم أنهم قد فهموا شيئا والحق أن الدكتور لم يكن يعنيه كثيرا أن يفهموا أو لا يفهموا.

والحق أنه كان أكثر الوقت يخاطب نفسه وليس الطلبة.. يخاطب ذلك القلق الداخلى الذى لا يهدأ.

ونعرفكم أكثر ببطلنا.. هو الدكتور ألبير إسكندر مدير مستشفى الأمراض العقلية .F.R.C.S فى باثولوجيا الأعصاب.. دكتوراه بدرجة الشرف على رسالته فى نظرية ردود الأفعال، شهادة الزمالة بجمعية الأطباء العقليين فى جنيف.. عميد طب الأعظمية بالعراق.. نقيب أطباء سابق.. مدير مستشفى خاص بالمعادى.

ذلك هو بطلنا اللامع الناجح الذى سوف ندخل بيته فنجد حياة على النقيض تماما من هذا النجاح والالتماع الذى يطالعنا على باب العيادة وفى أعمدة الصحف وعناوين الأخبار.

سوف يستقبلنا على الباب رجل كئيب يخيل إلينا أنه عاش عمره كله لا يبتسم، هو رئيس الخدم.. ثم نتعرف على طباخ نحيل ممصوص يبدو أنه لا يأكل أبدا.. ثم نسمع صوتا رفيعا مزعجا معدنيا لا يكف عن الصياح هو صوت الدادة.. ثم خادمة تتحرك مثل المكوك ولا تنطق.. ثم نتجول فى شقة واسعة من سبع غرف ذات جدران رمادية مقبضة.. ونتعرف على الولدين الوحيدين للدكتور.. وأحدهما مصاب بشلل أطفال ويمشى بعكازين، والآخر مصاب بتخلف عقلى. وفى إحدى غرف النوم نجد امرأة تحتضن كراسة أشعار فرنسية وراديو ترانزستور صغير وفى يدها سماعة تليفون لا تتركها.. تلك هى حرم الدكتور.

ويعيش الدكتور وزوجته فى غرف نوم منفصلة ولا يلتقيان إلا على شجار ولا يتبادلان إلا سباباً.

والزوجة تشكو من عدة التهابات مزمنة فى المجارى التناسلية بعد ولادة عسرة وهى لهذا لا تطيق أن يقربها زوجها.

ذلك هو الوجه الآخر القاتم من حياة الدكتور إسكندر اللامعة.

والدكتور يستدل بحياته على صدق نظريته.. فالنقص الجنسى الذى تعانيه زوجته هو السبب فى هذه الهيستيريا والرومانتيكية وحياة الشعر والخيال التى تعيشها، كما أن هذا النقص ذاته كان حافزا له على التسامى بالإغراق فى العلم والعكوف على الدراسات. ولو أن حياتهما سارت على منوال طبيعى لكان لكل منهما الآن شخصية مختلفة وهكذا لا حقيقة هناك.. وإنما مجرد أشواق مادية تنادى على ردود أفعالهم.

بل إن ذلك الابن الذى أصابه التخلف العقلى كان هو الآخر ضحية لتعاطى الزوجة المخدرات أثناء الحمل.. وذلك دليل آخر على الأصل المادى لكل شىء.

ولن نسأل الدكتور.. كيف تقوم هناك أفعال وردود أفعال بدون أن تكون هناك نفس موجودة ابتداء.. لتفعل وتنفعل.

ولن نقول له.

من كان يفعل طول الوقت ومن كان ينفعل سواه هو وسوى نفسه التى جعلها موضوعا لشكه وإنكاره.. لن نقول له.. إنه

الحقيقة.. وإنه كان موجودا طوال الوقت وكان حاضرا ابتداء.. قبل أى فعل وقبل أى رد فعل.

لن نقول له إن كل ما يقـوله ويكتبه مجـرد قنابل دخان يحاول أن يخفى بها تلك الحقيقة التى لا يستطيع مواجهتها.

ولن نسـأله لمـاذا لم يستطع بعلمـه وتعاليمـه أن يرد ابتسـامة واحدة إلى ذلك البيت الكئيب.

وسوف نمسك عن الكلام رفقـا به وحتى لا نزيد متاعـبه فإنه يجد من المضايقات ما يكفيه.. وسوف نمضى رأسا إلى ذلك الختام اللامعقول والفـجائى للقصة الذى قام فيه الدكتـور بأكبر رد فعل فى حياته.

سوف نمضى إلى ذلك اليوم الملتهب من أغسطس ونصاحبه فى مروره بالمستشفى من عنبر إلى عـنبر.. ثم نمشى معه إلى المصعد ومن خلفه رتل الممرضات ونصاحبه إلى الطابق السابع.

ونسير مـعه إلى غرفة بالدرجة الأولى حـيث يرقد مريض من بلد عربى.

ونراه وهو يلـقى بنظرة خـاطفـة عـلى المريض.. ثم يمـضى يتفـحص الأوراق المعلقة بسـريره ويقرأ الرسـوم البيانيـة للنبض والحرارة والضغط ويمر بعينيه فى التـحاليل المعملية للدم والبول والسائل الشوكى.. ثم وهو يميل مصغيا إلى همهمة الممرضة وهى تهمس إليه بـأن المريض قام بعدة محاولات انتـحارية.. وأنه ابتلع

أنبوبة أسبرين ثم حاول قطع شريانه.. ثم حاول أن يخنق نفسه بالملاءة.

ونسمعه وهو يأمر بحقنة هيوسين فورية.

ثم يوشر بعمل صدمة كهربائية.

ثم نصاحبه وهو يخرج من عند المريض ليمشى فى تثاقل إلى غرفته.

ونراه وهو يلقى بنفسه على الكرسى أمام مكتبه.. ونرى ذلك الظل القاتم الرمادى من الكآبة الذى اكتنفه وغطى ملامحه.. ونرى تلك اللمعة فى العينين.. وكأنما هناك أشياء مختبئة قد خرجت من مكامنها فجأة وداهمته.. تلك الأشياء التى كان يتلهى عنها بدوامة العمل حتى إذا فرغ من عمله برزت له فجأة من مخابئها وكأنها أفاع خرجت من تحت كرسيه لتلتف حوله وتعتصره.

والذى كان يطل فى تحولات عينيه فى تلك اللحظة كان يراهما كسراجين ينطفئان ويخلفان سوادا من اليأس المبهم لا حدود له.

كان يبدو فى تلك اللحظة عجوزا ذاهلا مريضا أكثر من جميع مرضاه.

وكان يبدو مثل برج شامخ تآكل أسفله وبدأ يميل قليلا قليلا حتى بلغ النقطة الحرجة التى لا نجاة بعدها. والتى لا تنفع فيها نجدة.

لقد انفض السامر وبقى وحده مع نفسه وجها لوجه ذلك اللقاء الذى يخشاه ويهرب منه.

وقد ظل يهرب من ذلك اللقاء وظل يجرى هاربا منه ستين سنة يؤلف الكتب ويناقش ويجادل ويرفع صـوته حتى يغطى على تلك الهمهمة القلقة التى تعلو بداخله.

وفى تلك اللحظة داهمه القلق حتى لقد شعر بتجويفه الصدرى يتحـول إلى خواء.. وشعـر بنفسه فى الهـواء وقد تلاشت الأرض التى كان يقف عليها فجأة.

واستـولى عليـه ذلك الإحسـاس السـاحق باللامـعنى.. واللاجدوى.. واللاثمرة.

ورأى كل شىء خاويا مجوفا.

جميع اللحظات خاوية مجوفة.

كل اللذات خاوية مجوفة.

كل المكاسب لا شىء.

الوجود عدم.

هو عدم.

وسحقه الشعور بالعدمية.. والمحو.

وخيم عليه إحساس بالظلمة.. والجدب.. والعقم المطلق.

وشعر بنفسه يهوى من حالق.. يهوى.. ويهوى.

ولم يستطع أن يتحمل.

ورأى الواقفون بحديقة المستشفى فى تلك اللحظة منظراً عجيبا.

رأوا الدكتور إسكندر بلحمه ودمه يقف فى شرفة الدور السابع يحملق فى الأرض وقد اتسعت عيناه فى ذهول.. ورأوا يداه تمتد إلى فمه بأشياء يبتلعها.. ورأوه يميل على سور الشرفة.. ثم يميل ويميل.. ثم يلقى بنفسه من الدور السابع ليرتطم بالأرض جثة هامدة.

وهكذا انتهت حياة الدكتور إسكندر بأكبر رد فعل.

ونستعير أسلوبه العلمى فى التفسير فنقول:

لقد أدان الرجل نفسه بنفسه.

وكتب بيديه الحكم النهائى على نظريته.

فالحياة تصبح مستحيلة تماما إذا خلت من المعنى وأقفرت من الإحساس بالحق والخلود والإيمان.

الحب والمـوت

كان التشخيص.. سرطانا بالثـدى من الدرجة الثانية.. وقال لها الطبيب.. هناك احتمال لنجاح جراحة استئصال كامل ولا يجب أن نضيع الفرصة.

قالت لخطيبها ودموعها على خديها: أتتزوجنى بثدى واحد؟

قال فى يقين: وبدون أثداء.

قالت: كنت تحب ثديى وتصف نهوده واستدارته فى أشعارك.

قـال: مـا كنت أصف إلا خـيالى فـمـا رأيت ثديك ولا لمسـتـه ويمكننى أن أمضى فى خيالى فأخلق من العدم ما أشاء.

قالت: سوف أضع مكانه ثديا صناعيا من رغوة المطاط.

قال: وهـل اللحم والدم إلا نوع آخر من الرغـوة الخلوية.. نحن نصـور لأنفسنا أوهامـا ومـا الحق إلا الروح التى تسكن البـدن والنفس التى تسكن القلب.

واستأصل الجراح الثدى ومعه أحزمة كثيرة من الغدد الليمفاوية.. وحاول أن يحاصر مكان الورم بالأشعة.. ولكن الخلايا السرطانية كانت قد سرحت فى الدم.. وما لبثت أن ظهرت تجمعات خلوية سرطانية فى الرئتين.

وبصقت الفتاة دما.

ثم ظهرت تجمعات أخرى خلوية فى العمود الفقرى فما عادت تستطيع أن تقوم أو تقف.

وبدأت تعانى آلاما حادة وتصحو بضع ساعات لتغيب بعد ذلك أغلب يومها وليلها فى المورفين.

قالت لخطيبها: لا فائدة.. سوف أموت.. أتحبنى؟

قال ودموعه على خديه: سوف أحبك أكثر.

قالت: كيف تحبنى بعد أن أموت.. كيف تحبنى بلا جسد.. أصلاة فى غير محراب.. أطواف بدون كعبة؟

قال: لقد هدموا أحجار الكعبة عدة مرات فى التاريخ فهل انتهى الإيمان وهل انتهى الطواف.. إنما الطواف حول البقعة وليس حول الحجر.. إنما الطواف حول نقطة فى التصور حول مركز الاهتمام.. وكما يطوف القمر حول الأرض وكما تطوف الأرض حول الشمس وكما يطوف الأصغر حول الأكبر كذلك تطوف كل المخلوقات حول الله الأكبر من كل شىء.. وكلنا طوافون حول المشيئة الإلهية أردنا أم أبينا.. وما الكعبة إلا الرمز.. وأنا لا أطوف

حول حجارة.. ولو تهدمت لما تغير فى نظرى شىء.. وسأظل أطوف حول مشيئة ربى إلى الأبد.

قالت فى حزن: كنت تقبل شفتى بلذة.

قال: بل كنت أقبل روحك.

- وكيف ستقبل الروح الآن بلا شفتين؟

- إننا لا نفقد حبنا لساكن الضريح إذا لم نقبل نحاس الضريح.. لأن علاقتنا بروحه وقبلاتنا لروحه وليست للنحاس.

- هذا شعر أخشى ألا يصمد للواقع.

- هذا حق.

- أصارحك بأن حبى لك يختلف كثيرا عن ذلك الحب ، فأنا كنت أريدك لحما ودما.. كنت أحب ريقك يجرى فى فمى وعرق يديك على وسادتى، أنا لا أستطيع أن أصلى فى غير محراب.. ولا أستطيع أن أعبد دون أن ألثم الحجر الأسود وأشعر بريق شفتى على سطحه العنبرى.

- أصدقك.. ربما كان هذا هو الفرق بين المرأة والرجل.. فالرجل يستطيع أن يحب فى تجريد والمرأة لا تستطيع أن تحب إلا تجسيدا.. لأنها هى ذاتها رحم الحياة التى تلد الأجساد.. المرأة جسم الدنيا والرجل عقلها.. ولهذا استطاع مجنون ليلى أن يهيم فى ليلى ويضيع حياته فى حبها دون أن يمسها.. ولم تستطع هى.. بل تزوجت وأنجبت مثل كل جنسها من بنات البشر.

- نعم.. ولهــذا قـرأت عن الحب العـذرى ولم أفــهـمـه قط.. ولا أصدق امرأة تتكلم عن حب عذرى أبدا.

وعادت تبكى مغـمغمة.. يا ويلى.. يا ويلى مـن حرمانى منك.. إنه عـدم.. إنه ظلمة لا أطيـقهـا.. أتوسل إليك يا حـبيـبى تزوجنى الليلة.

وتزوجا بين ضـباب الأفيون وخـدر المسكنات وآلام السرطان ونشوة اللقاء الجسدى العارم.. وكانا أشبه بحياة تعانق الموت على شفا جرف هار.

ولهذا كانت لذاتهما مضاعفة ولهفـاتهما محترقة وكأنها لثمات خاطفة من خلال قضبان لسجين برىء ذاهب إلى الإعدام.

وكأنما احـترمت قـوانين الغيب هذا اللقـاء فتوقـف نمو الخلايا السرطانية بضعة أيام ليتيح لهـما فسحة لذلك الحوار المحترق بين الحياة والموت.

وكأنما قال الحب للموت.. توقف لحظة.. فتوقف.

وكانت تقـول له.. كم ألعن ذلك الأفيون لأنه يحـجبنى عن الألم كمـا يحجبنى عنك، ولأنــه يقيم حولى أســتارا من الوهم فأشـعر كأنما أمسكك بقفـاز وليس بيدى.. كم أريد أن أباشرك بلا وسائط وبلا حـجب.. فأصيـر أنا أنت بالحق والحـقيـقة وبالدم والجـسد ويصير كلانا كائنا واحدا.. فيقول لها وهو يبكى: فى الجنة سوف نباشر بعـضنا بعضا بلا وسائط وبلا حجب فنتـوحد كأرواح أما

فى الدنيا فغلالة الأجساد والطين تفرقنا ولا أمل.

فتقول فى يأس: جنتى هى أنت وميقاتى اليوم ورغبتى أن تتوحد طينتى وطينتك لتكونا سبيكة واحدة.. مالى أنا والأرواح.

فيقول مندهشا : أوثنية أنت.

فتقول: بل امرأة.. لقد أرادنى الله أن أكون دنيا لك فكيف تريدنى أن أكون آخرة.

فيقول متذكرا: تلك هى حواء فعلا التى ربطت آدم إلى الأرض إلى قيام الساعة.. ما أجملك من حواء.

ونزلت سطوة الغيب فانهار الجرف بين الموت والحياة وأصبحت جثة لا يسمع لها صوت ولا يرى لها كيان.

وتحول الحوار إلى كلام مبتور من طرف واحد هو يصرخ وهى لا تجيب.. ثم هو وحده يكلم ترابا.

ثم علامة تعجب أمام الباب الذى لا يعود منه أحد.

ثم سؤال.. ولا جواب.

المبروك

أفرغ الرجل كأس الخمر الرديئة فى جوفه ثم شرع يبكى ويتمتم نادما مستغفرا.. تبت إليك يارب.. لا أعود إلى شربها أبدا.. أعاهدك وأستغفرك.. وبعد لحظات كان يملأ كأسا أخرى ليلقيها فى جوفه ليعود فيستغفر باكيا مغمغما.. سامحنى يا رب.. هذه آخر مرة.. تبت إليك ورجعت إليك وأنبت إليك.. ثم ما تلبث الغفلة أن تسيطر عليه ويعاوده ضعفه فيغالبه فيغلبه فينكب على كأس أخرى.. ثم يعود فيقف تائبا باكيا بالباب.

ذلك هو الشيخ مبروك.. وكانوا يسمونه «الشيخ» من باب السخرية بحاله.

ستون سنة ولكن هيكله المضعضع يوحى بأنه جاوز المائة..

جاء إلى الدنيا لقيطا ملقى على الرصيف فى لفة وقضى صباه فى ملجأ للأيتام ثم فى سجن للأحداث.

لم يدع منكرا إلا قارفه ولا مخاضة أوحال إلا انغرس فيها.

كان يخرج من سجن ليدخل سجنا ويخرج من تخشيبة ليلقى في تخشيبة.

وانتهى حاله إلى أن أصبح حارسا في قرافة.. ينام ويأكل ويشرب ويسكن مع الموتى.. يحرس القبور نهارا ثم يعود فينبشها ليلا ليبيع الجثث لطلبة الطب في مقابل جنيهات قليلة يسكر بها.

ذلك هو «الشيخ مبروك» صاحب ملف السوابق الحافل..

ولكنه كان طرازا عجيبا من المجرمين..

كان مجرما «غلبانا» دائم البكاء دائم الندم منكسر الوجه إلى الأرض يلازمه الشعور بأنه حشرة وبأنه لا يستحق شعاع الشمس الذي يطلعه الله عليه ولا نسمة الهواء التي يتنفسها ولا اللقمة الجافة التي يأكلها.

ولم يكن يرتكب ذنبا إلا كانت وراءه ضرورة ملحة تدفعه.. وحياته كلها كانت محاولة مستمرة للاستقامة دون جدوى.

فهو يغالب طبعه وطبعه يغلبه.

ويغالب ضعفه وضعفه يغلبه.

ثم يبكي في النهاية ويشعر بالخزي والهوان.

ويحاول أن ينسى ذلك الهوان بالشرب فيزداد بالشرب هوانا.

يشعر دائما بأن الله يراه.. ولا يدري من أين يأتيه ذلك الشعور.. ولا كيف يفعل ما يفعل أمام عين الله التي لا تنام.

شعوره الدائم الذي لا يفارقه هو الاشمئزاز من نفسه.

وهو شعور ملازم كالتنفس لا خلاص منه.. وكأنه صرصور

غارق فى مستنقع من الصمغ كلما حاول الخلاص ازداد غرقا.

لا ينجيه من الموت يأسا إلا إيمانه بأن ذنوبه مهما عظمت فإن عفو الله أعظم.. وإن الله لا تنفعه طاعتنا ولا تضره ذنوبنا.. فهو غنى بنفسه عن العالمين.. وهو الذى وسع كل شىء رحمة وعلما.. وهو الوهاب الذى لا يحتاج لأحد..

لا يكف عن البكاء.

ولا يكف عن الوقوف بباب الرحمة وإن كان يشعر بأن يديه ملطختان بالآثام.. يعرف الناس تاريخه ويسخرون منه ولكنهم يعطفون عليه.. والبعض يقول له.. ادع لنا يا شيخ مبروك.. فيقول لهم.. يدعو لكم الشيخ مبروك.. ولكن لا أنا شيخ ولا أنا مبروك.. ويبكى ويدس يده المرتجفة تحت جلبابه ليخرج الزجاجة فيشربها ممزوجة بدموعه ثم يمضى يحث الخطى لائذا بالجدران منكس الوجه إلى الأرض ليختفى فى ظلمة المقابر.. وهو يستغفر ويطلب العفو.

واليوم كان على الشيخ مبروك أن يفتح حوش الحاج إبراهيم للمرة الخامسة ليتلقى الابن الخامس للحاج.. تلك القصة التى كانت تتكرر كل عام.. كلما أنجب الحاج ابنا شق له لحدا.

وكان قلب الشيخ مبروك ينفطر حزنا على ذلك الأب الواله الغارق فى دموعه.

قال الحاج وهو يبكى: ذلك هو ابنى الخامس.. بنتى الوحيدة أصابها شلل الأطفال من شهور وأصبحت كسيحة تتحرك على

كرسى بعجلات.. وبالأمس قال الطبيب.. إنه لا فائدة.. تآكلت جذور الأعصاب ولم يعد ينفع طب ولا دواء.. عن قريب نشق لها لحدا آخر يا شيخ مبروك.. عن قريب آتى بها إليك محمولة.. يارب رحمتك.

وألقى الرجل بنفسه على صدر الشيخ مبروك وراح يبكى وينهنه كطفل يتيم.

قال الحاج فى دموعه:

- ادع لها بالشفاء يا شيخ مبروك.. لعل الله يشفيها بدعوتك..

قال الشيخ مبروك والخزى يملأ نبراته:

- أنت أولى بالدعوة ياحاج.. أنت حجيت بيت الله.. وزرت النبى.. أما أنا فحجى كان إلى السجون وزياراتى للملاجئ والأحداث.. وحظى من تقوى الله هو ما ترى.. فكيف أجرؤ أن أرفع وجهى إلى الله بدعاء.

فعاد الحاج يقول باكيا:

بح صوتى بالدعاء وجاهدت نفسى صلاة وصوما فما استمعت السماء لدعائى.. ادع لها أنت يا شيخ مبروك.. فالله رب قلوب.. بحق الله ادع لها ولا تخيب رجاء أب مكلوم.

فرفع الشيخ مبروك يديه إلى السماء واجما خزيان وتوجه إلى الله بنظرات خجلى وتمتم بدعوة مخضلة بالدمع متهدجة بالانكسار:

- يارب اشفها فلا شافٍ سواك وعافها فلا معاف سواك..

وبكى الرجلان كما لم يبكيا منذ ولدا.

وفى اليـوم التالى شـــهدت القــرافــة الحاج إبراهيم يبـحث عن الشيخ مبروك.. ويفتش عنه كالمجنون وهو يقول لكل مَنْ يلقاه:

أين الشيخ مبروك.. أين الشيخ مبروك دلونى على مكانه.. بنتى شفيت من الشلل.. قامت من كرسيها ومشت وحدها وقال الدكتور هى معجزة..

أين الشيخ مبروك.. أين أجد الشيخ مبروك.

ولكن الشــيخ مـبروك كـان قـد مات ولقى ربـه فى فجـر ذلك اليوم.. ودفن حـيث لفظ أنفاســه وهو يتمـتم باكيـا كعادتـه كلما وضع خده لينام..

رب اغفر لى فمَنْ يغفر الذنوب إلا أنت.

رب إن ذنوبى وإن كثرت فإنها لن تضرك وطاعاتى وإن كثرت فإنها لن تنفعك فأنت الغنى عن العالمين.

رب مهمـا عظمت ذنوبى فإن عفوك أعظم ومهمـا كبرت آثامى فإن إحسانك أكبر.

سبحانك وسعت كل شىء رحمة وعلما.. فارحم ضعفى وعجزى وفاقتى وأنت القائل : ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء].

رب اقبلنى من المنكسرين الخائفين المشفقين الوجلين..

يارب أنت الرب وأنا العـبد.. أنت الوجود وأنا العـدم سبـحانك لا أملك من نفسى شيئا ولا أملك لنفسى شيئا.

رب أسلمت نفـــسى إليك.. وأسلمت ضــعـفى إلـيك.. وأسلمت

حقيقتى إليك.. وأسلمت إرادتى إليك.. وأسلمت روحى إليك.. لا حول ولا قوة إلا بك..

بك أحيا وبك أموت وبك أبعث.. وبك أنال المغفرة وبك أدخل الجنة.

وطلع فجر ذلك اليوم مع آخر أنفاس الشيخ مبروك يسلمها إلى ربه.

وانتهت قصة رجل من الخطائين كان أقرب إلى الله من كثير من الطائعين من أهل الغرور بطاعتهم.

رجل غفر الله له لأنه عرف مقامه.. وكانت حياته كلها انحناء وانكسارا ودخولا من الباب الضيق.

ملاطفـــة

الطريق من القاهرة إلى مرسى مـطروح بالسيارة طريق طويل ممل تتشابه فى المناظر على مدى ســاعات، آفاق ممتدة من الرمال وشريط أزرق من البحر يبدو ويخـتفى واهتزازات صاعدة هابطة: تهبط منهـا الأحشاء، ويصــاب الرأس بالدوار.. ولولا ذلك الرفيق الثرثار ربما كان السائق قد أغفى على مقعد القيادة نائما من فرط الرتابة.

وفى مثل هذه المسافات الطويلة تحلو الثرثرة..

وصاحبنا الثرثار رجل قلق متوتر لا يعجبه شىء ولا يرى من الإنسان إلا عيوبه ولا يرى فى الدنيا إلا جوانبها السالبة ولا يرى فى الكون شيـئا جديرا بالحمـد.. فالكون مشروع فـاشل والحياة صفقة خاسرة نهايتها الموت.. والعطب والفساد يكتنف كل شىء.. فــالورد يذبل والشـمس تأفل والجـســد يشـيخ والأرض تتـبـدل ولا شىء يبقى على حاله والإنسان يشـرب دموعه مع كل ضحكة

فأين الحكمة.. وأين الإبداع.. وأين الجمال.. وعلام ذلك التسبيح شكرا وحمدا وعلام تعفير الجباه سجودا وركوعا.. وكيف نشكر الخالق على الميكروب والسرطان والزلزال والموت غرقا وحرقا.

أما صاحبنا الآخر فهو على النقيض، رجل مطمئن تكسوه دائما ملامح الرضا والحمد والقناعة.. وفى رأيه أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان.. وأن الله خلق الكون والإنسان على أحسن صورة.. وأن الموت والشيخوخة والمرض هى ظلال لابد منها لكمال الصورة.. فما كانت الصحة لتعرف لولا المرض.. بل إن المرض يعطى الإنسان فيما يعطى.. المناعة والحصانة.. كما أنه يعلمه الصبر والجلد.. ثم هو الذى يخلق المناسبة للرحمة والتعاطف والبذل بين الناس.. وحكمه حكم لسعة البرد والحر التى تنبه الجسد وتستفزه ليحتشد.. ولو أخلد الإنسان إلى اعتدال دائم لاسترخت خلايا جسده وهلكت من الخمول والترف.. وشكرا للميكروب فهو يخلق للعقل وظيفة عاجلة ليفكر ويبتكر ويحتال على الإنقاذ.. وهل البنسلين والكلوروميسين والأريومسين وكافة عائلة المضادات الحيوية إلا مخلفات ميكروبات.. وهل نتداوى الآن من الميكروبات إلا بميكروبات كما تروى لنا آخر الأنباء الطبية.. وهل تصنع لنا الزبادى من اللبن إلا ميكروبات.. وهل يحصل النبات على سماده الطبيعى إلا بميكروبات فى درنات الجذور تثبت النيتروجين وتسلمه للنبات سمادا جاهزا.

إن للشر دائما وجها آخر خفيا هو عين الخير.

ولولا الزلازل والبـراكـين التى تنفس عن الضـغط الزائد فى باطن الأرض لانفجرت الأرض بمَنْ عليها من ملايين السنين.

وكمـا يقول الفيلسـوف الحكيم أبو حامد الغـزالى : كلما ازداد القوس اعوجاجا أعطى السهم توترا واندفـاعا أكثر ليصيب هدفه، وذلك هو الكمال الذى يخفى فى باطن النقص.

ولهـذا قـال الغـزالى : إنه ليس فى الإمكان أبدع مما كـان وأن الدنيا بما فيها من نقص هى أكمل مثال لدنيا زائلة.

قال الرجل الثرثار : كل هذا كلام فى كلام.. وأحب أن أرى الآن لو كسرت ذراعك أو كف بصرك.. ماذا تقول؟

قال الرجل الهادىء :

أقـول الحـمد لله لطفـت يارب فى قضـائك وأبقـيت لى ذراعـا سليمة.. وأخـذت بصرى وأبقيت سمعى.. فـشكرا على ما أبقيت.. ولك الحكمة فيما أخذت.

قال الثرثار:

هذا دجل صريح.. وأراهن أنك أكبر دجـال فيما تقول.. وأراهن أن الموقف سـوف يختلف كثـيرا إذا أصـابك شـىء من هذا.. وأنك سوف تسب الدين والملة.

قال الرجل المطمئن:

– حـاشا لله أن أفـعل شيـئا من ذلك.. وأنا أحـسن الظن بالله.. وأرى جماله فى كل شـىء.. وأرى رحمته تسبق عدله ولطفه يسبق

رحمـته.. فى كل قضـاء.. ولا أراه ظالما أبـدا.. تعالى ربى عن الظلم علوا كبيرا.

ولم يجب الرجل الثـرثار.. فقـد وقعت العـربة فى مطب فـجأة وانحرفت عجلة القـيادة.. وظهرت عربة قادمة بسـرعة من الاتجاه الآخر.. وفـقد السائـق السيطرة على توجيـه عربتـه تماما.. ورآها تخرج من يـده إلى خارج الطريق المرصـوف ثم تميل ميـلاً شديداً لتنقلب وتبدأ فى الدوران حول نفسـها عـدة مرات لتستقر على بعد مائة متر فى الرمال.

وخرج الـرجل الثرثار شـاحبـاً يرتجف وهو يتحـسس نفسـه ويدهش كـيف لم يصب بخدش.. أمـا الرجل المطمـئن فكان فاقـد الوعى يتنفس بصعوبة ويخرج من فمه شـخير.

وانطلق الرجل فى فزع إلى أقرب نقطة مـرور واتصل تليفونيا بأقـرب وحدة صـحيـة وكـانت وحدة العلمـين على بعـد عشـرة كيلومترات.

وجـاءت عربة الإسـعاف.. وقـال طبيب الوحـدة بعد الفـحص الأولى إن هناك تمزقا بالكلية اليـمنى ونزيفا، وإن الحل الوحيد هو نقل المصاب فورا إلى الإسكندرية وإجراء جراحة استئصـال عاجلة للكلية..

وفى الغرفة رقم «٧» بعنبر الجراحة بمسـتشفى الجامعة.. كان المصاب مـسجى على فـراشه بعـد أن خرج من غـرفة العمـليات.. وكان لايزال فى غفوة البنج.

وإلى جواره جلس صديقه الثرثار فى انتظار اللحظة التى يفتح فيها عينيه، وكان أول ما قال الرجل حينما فتح عينيه:

– الحمد لله!

وكان الرجل الثرثار يجلس مبهوتاً وكان مازال يرتجف من هول ما رأى وما سمع وهو يتأرجح على عتبة الموت.. وكان لا يزال يتحسس جسده السليم ولا يصدق كيف خرج سليماً وكان الطبيب يتحدث بالتليفون إلى قسم الباثولوجى.

ووضع الطبيب التليفون وظهرت على وجهه دهشة لا حد لها..

قال الطبيب وقد اتسعت حدقتاه:

– هذا أمر عجيب.. أمر لا يصدق!

قال الرجل الثرثار.. كيف.. ماذا تعنى.. ماذا حدث؟

قال الطبيب وهو يبتلع لعابه من الانفعال:

الكلية التى استئصلت..

قال الرجل الثرثار فى فضول:

– ما خطبها..؟

قال الطبيب:

يقول تقرير الباثولوجى.. إنه كان بها سرطان وليد فى أول مراحله.

وخيم الصمت على الثلاثة برهة وكأن على رءوسهم الطير، ثم استأنف الطبيب الكلام:

– لولا هذا الحادث الذى استأصلنا بسببه الكلية لكان المصاب

سيهلك بالسرطان حتما.. هذا عجيب هذا حادث إنقاذ.. هذا حادث ملاطفة.. وليس نكبة.

إن ما حدث كان خيرا لا حد له..

وابتسم الرجل المطمئن ابتسامة واهنة فى فراشه وقال: الحمد لله.

إن الله يعاملنى بنياتى فقد كنت دائما أحسن الظن به.

والتفت إلى صاحبه الثرثار قائلا:

- أرأيت يا صديقى.. فذلك هو الخير الباطن فى الشر. وسكت الطبيب ساهما.

وبهت الذى كفر.. فلم يجد ما يقول.

شكرا لقد أديت وظيفتك

كان الرجل من هواة تربية النحل وكانت عنده مناحل فى حديقته فى الشاليه الأنيق الذى يتردد عليه فى الهرم.

وكانت أمتع أوقاته تلك الساعات التى يقضيها فى جمع العسل من الخلايا.

والحق أن هوايته الرئيسية فى الحياة كانت جمع العسل وجنى الشهد واستخلاص الزبد والنفع والمصلحة واللذة من كل شىء بأقل مجهود.

اكتشف أن التجارة هى أحسن وسيلة لاستخلاص أقصى نفع فى أقل وقت فاشتغل بالتجارة.. ثم اكتشف أن التجارة فى المال ذاته وفى العملات المالية هى زبدة المسألة فاشتغل بالصرافة واستبدال وبيع العملات .. ثم اكتشف أن السمسرة والوساطة أربح من الاثنين فاشتغل بالوساطة والسمسرة وكان يكسب نصف مليون جنيه بمكالمة تليفونية بين عميلين فى دقائق.

ثم نظر إلى الحياة فاكتشف أن زبدتها فى الارتحال والأسفار والتهاب اللذات وأنه يمكن أن يعتصر من الحياة أقصى ما يمكن أن تعطيه فى سهره وسكره وسفره وأن أقصى ما يمكن أن تعطيه الحياة هى المآكل والمشارب وذروة عطائها إغماءة نشوانة بين ذراعى امرأة.. فبدأ يتخصص فى الأمر واشترى الشاليه فى الهرم واستأجر معه عدة شقق وفيلات فى لندن وروما وباريس وأثينا.. وأعفى نفسه من الزواج.. وتفرغ لسرقة الزوجات واختلاس أجمل باقة من النساء يقضى معهن ساعات فى هذه الغرفات الحالمة هى زبدة الأمر كله.

وكان من لزوم هذه الحياة أن يريح نفسه من المبادىء والأديان والعقائد وأن يعفى نفسه من الضمير.. حسبه أن يؤمن باللحظة وأن يغرق فى الساعة التى هو فيها.. أما النظر فى الغيب والآخرة والثواب والعقاب والحرام والحلال والخوف من الذنوب فهى أمور معطلة أربح له أن يتركها لغيره ينشغل بها ويتفرغ هو للعاجل والأكيد والمفيد.

وكان اليوم جمعة فى شتاء قارص من يناير وقد صحا من نومه متأخرا بعد ليلة عب فيها من اللذة ما شاء واعتصر من ضرع الحياة أقصى ما استطاعت الحياة أن تعطيه وأغفى فى حضن امرأة وذاق أحلى قبلة واستمتع بأجمل عناق.

وأمام إغراء المال قل من كن يستطعن الصمود ومن حسن حظه أن أكثر الجميلات المترفات من النساء كن مثله متخصصات فى

نفس فنه الرفيع وهو كـيف يأخذن من الحياة خلاصـتها دون أن يشغلن أنفسهن بأن يعطينها شيئا.

ولهذا كانت الصفقة دائما طيبة.. وكانت دائما رابحة.

ولم يخطئ تقديره مرة واحدة.

وكـانت عـادته فى تلك الأيام بعـد أن يلتـهم إفطاره الدسم أن يمـضى يفتش مناحله، وأن يقـضى الساعـات يتأمل ذلك السـعى الدءوب لألوف النحلات الشـغالة وهى تمضى إلى الحقول لتـعمل فى دأب وصـمت فى جـمع الرحـيق من الزهور لتـعـود مـحـملة بمحصولها الوافر قبل الغروب.

وفى صـمت تعـمل فى تحـويل هذا الـرحـيـق فى بطونهـا إلى شهـد.. ثم تصبه فى الخلايا لتـخزنه ثم تختم عليـه بالشمع.. ثم توزع بينهـا الوظائف، البـعض يـرعى البـيض، والبـعض يطعم اليرقات الصـغيرة التى خرجت من الفـقس.. والبعض يطعم الملكة بالغذاء الملكى وينظفـها ويغسلهـا.. والبعض يمرح بأجنحـته على باب الخليـة ليكيـف هواءها والبـعض يحـرس البـاب من الأعـداء وينتشر حول الخلية ليسـتطلع أخبار أى عدو.. بينما ألوف الذكور تأكل وتنام فـى كـسل وتعـيش بلا عـمل فى انتـظار ذلك اليـوم الوحيد من كل سنة حينما تغادر الملكة الخلية وتحلق بأجنحتها فى الجو.. فـيتـبعهـا سرب الذكـور.. فتظل ترتفع وترتفـع.. والذكور يتسابقون خلفها.. حـتى يلحق بها أقواهم ولهذا الذكر الأقوى من الجميع تترك الملكـة نفسها ليلقحها.. وبعـد التلقيح تعود الملكة إلى

الخلية لتبدأ دورة جديدة من التكاثر ووضع البيض.. أما الذكور فيعودون إلى الخلية ليلاقوا حتفهم.. إذ لم تعد لهم فائدة وأصبح تركهم يأكلون عالة على الجميع تبذيرا لا معنى له.. ولهذا كانت النحلات الشغالة تستقبلهم عند الباب باللدغ والضرب.. والركل ثم تلقى بهم إلى الخارج ليتكفل البرد والجوع بالقضاء على البقية الباقية منهم.

وكان حظ صاحبنا فى ذلك اليوم البارد من يناير أن يرى هذه المجزرة الغريبة التى تجرى أمام عينيه كأنها شريط سينمائى.

رأى الذكور العائدين بعد التلقيح تقتلهم النحلات الشغالة واحدا بعد الآخر وتلقى بهم فى البرد والعراء.

وكان غريبا أن يتأمل حال هذا المجتمع الحشرى العجيب حيث لا تحتل العملية الجنسية إلا يوما واحدا بل لحظة واحدة من يوم من عام كامل يمضى كله فى عمل دءوب مخلص للبناء والإنتاج.

لحظة واحدة ذات يوم كل عام ينال أحد الذكور حظا من تلك اللذة.. ثم يجد بعد ذلك مَنْ يقتله على الباب ويقول له.. شكرا.. لقد أديت وظيفتك.. ولم يعد لنا بك حاجة.. ثم تدور العجلة بعد ذلك لعام كامل.. لا يذكر أحد تلك اللذة ولا يفكر فيها ولا يسعى إليها.. وإنما ينقطع الكل للبناء والإنتاج وتكوين الشهد.. الذى يأكله صاحبنا.. صاحبنا الذى فرغ كل حياته وكل يوم وكل لحظة من سنى عمره فى سعى دءوب مستمر لجنى اللذة أينما وجدها فى القاهرة أو روما أو باريس أو لندن أو أثينا.. وكل ما يأتى من

أعمال إنما هو فى خدمة تلك اللذات ولتكثيرها وتنويعها.

وذلك هو الإنسان.

وتلك هى الحشرة التى نعتبرها فى أدنى الدرك الحيوانى.

هل كانت مصادفة فى ذلك اليوم وصاحبنا يقلب الأمر فى فكره.. وقد اعتمد رأسه بين يديه وغرق فى التأمل.. أن مرقت رصاصة طائشة من ساحات التدريب القريبة واخترقت ذلك الرأس.. وأسكتت ما فيه من فكر إلى الأبد.

أكانت رصاصة طائشة حقا كما ذكر بعد ذلك فى محضر البوليس، أم كانت رصاصة من بندقية مخدوع عرف طريقه إلى رأس غريمه، أم كانت رصاصة وجهتها العناية الإلهية وقادها ملك الموت إلى ذلك الرأس.. هامساً كعادته فى أدب جم كما يفعل كل الملائكة.

شكرًا.. لقد أديت وظيفتك.. ولم تعد للدنيا بك حاجة.

ذرة يورانيـوم

كان الجو معبأ بالتوتر والخوف.

وبعد قليل يعود سيد البيت من سفرته القصيرة إلى العزبة.

ثلاثة أيام غاب فيها السيـد عن البيت كانت كالإفراج من سـجن مؤبد.

خرج الأطفال من غرفهم كـأنهم يخرجون من زنازين وانطلقوا يمرحون ويلعبون ويغنون.

كل واحد أخرج لعبـته التى يخفيها واستـغرق فى هوايته التى يحبها.

والزوجـة الملاك.. نسمـة الربيع.. ووشوشـة الجدول الرقـراق التى لا يعلو لـهـا صوت ولا تـنبـو لهـا كلمـة.. أدارت الكاسـيت لتستمع إلى الصوت الذى تحبه.

كانت ساعات اختلسوها وكأنها ليست من العمر.

وكانوا طوال الوقت يتبادلون النظر إلى ساعة الحائط وقلوبهم الصغيرة تدق من دقاتها.. فبعد قليل سوف يعود الرعب ويدق الجبار الباب فيخفى كل واحد لعبته كأنه يخفى عورته أو جريمته ويعود الصمت الرهيب ليخيم على ذلك القصر الوادع كاللؤلؤة على البحر.

لقد فهم الأطفال بالغريزة ماذا يعنى قدوم أبيهم فكانوا يختفون تحت الأسرة.. ويختبئون وراء الأبواب.. وتخرس الألسن وتسكت الضحكات وتعلن الأحكام العرفية ويحظر التجول وينتشر الرعب ويحل الخوف والتوتر والتربص مكان السلام والأمن والطمأنينة.

أما الزوجة الملاك.. نسمة الربيع ووشوشة الجدول الرقراق.. التى لا يعلو لها صوت ولا تنبو لها كلمة فلا تفهم ماذا كان يريد زوجها وماذا ينقصه لقد صنعت له عشا من أعشاش الجنة فماذا يريد؟

وكانت تبكى فى صلاتها وهى ساجدة وتقول.. لماذا ابتليتنى يارب بهذا الرجل وهو آخر مَنْ يصلح لى.

ولم تكن تعلم أن الله منذ بدء التاريخ يضرب الناس بعضهم ببعض ليمتحن معادنهم ويجمع السباع والغزلان فى الغابة كما يجمع السالب والموجب فى الذرة كما يجمع الميكروب واللقاح

المضـاد فى الجسد كـما يجـمع عوامل المـوت وعوامل الحيـاة فى الخلية.

ولا استثناء لأحد من هذا القانون.

حتى أنبياء الله وأحباؤه كانوا أكثر الناس بلاء وابتلاء بالمحن.

وفى ذلك القـصر الذى يـتلألأ كـجوهرة عـلى البحـر ألقى الله بالكراهية لتنام فى حـضن الحب وجمع الخير والشر فى مـعركة يومية ليرى ماذا يكون.

كان ذلك القـصر أشبـه بذرة يورانيوم غيـر مستـقرة تتفـجر بالطاقة.. وتفنى تدريجيا بما يجرى فيها من تصـادمات.

وكان الضيوف الذين تجمعهـم ليالى سمر حول أكواب الشاى فى ذلك البـيت لا يشعرون بتـلك الطاقة المتـفجرة التى تشـيع فى الغرفات.

ولا أحد كان يتـصور أن وراء هذا الهدوء عملية هدم مسـتمرة ودائبـة تجرى بيـن جزيئـات ذلك البـيت الجمـيل الذى يبـدو من الخارج وادعا حنونا.

ولكنه كان هدوء البحـر تتصارع فى باطنه الحيتـان.. فما يكاد آخر ضـيف يخرج ويغلق خلفه الـباب حتى يسـتدير ذلك الوحش بعينيـن كطلقتى مسـدس ليتـهم زوجته بالزنـى مع كل واحد من هؤلاء الضـيوف من وراء ظهـره وبأنها أنجـبت هذا الطفل أو ذاك من هذا الرجل أو ذاك.. وبأنـهـا خانـته. وتـخـونه كل لحظة وكل

يوم.. وأنه سوف يكسر دماغهـا ليعرف ماذا يعشش فى ذلك المخ الملوث.. وسوف يـبقر بطنهـا ليعـرف ممَّنْ حملت.. سـوف ينتزع قلبهـا من صدرها ليـعرف ماذا يشـغله.. وأنه سوف يفـقأ هاتين العينين الغادرتين اللئيمتين.

وكالعادة يتـصاعد معه الانفـعال إلى ذروته.. ويخيل له الوهم تلك الاتهامـات ويجسدها وكـأنها حقـيقة.. فـتمتـد يده بالضرب والصفع.. وتسقط الزوجة الملاك راكعة باكيـة لا يخرج شفتيها إلا أنين خافت مكتوم وكأنما تطحنها آلة تعذيب هائلة.

وترفع عينيها فى بؤس لا تعرف ماذا تقول..

إنه يتـهـمـها بمـا لا يخطر لهـا على بال ويعـذبهـا على ذنوب لم ترتكبها ويصرخ فيها كالوحش:

– أنت امرأة جزاؤك الرجم حتى الموت.. اعترفى.

– وبماذا أعترف؟

– بأنك زانية.

– ولكنى لم أزن ولم يمسسنى رجل غيرك.

– كاذبة.. أقسمى على المصحف.

فتقسم.

– اقسمى على عينيك بالعمى إن كنت كاذبة.

فتقسم.

- بل أنت كاذبة وفاسقة وملعونة.

ولا بد أن تكون كـاذبة وفاسـقة وملعونـة ليحق عليـها عـقابه وليجد الذريعـة ليتمادى فى شره وتعـذيبه وعقلها الممـزق يغمغم كالمصلوب.. ماذا يريد الرجل.. مـاذا يريد ليهدأ ويرتاح ويكف عن هذا الإرهاب.

لم يبق إلا أن تكذب وتدعى زورا أنها فعلت وفعلت.

لقد جـربت الصدق فلم يثـمر إلا مزيدا من الاتهـام ومزيدا من القسوة.

يارب كيف السبيل إلى راحته؟

الطلاق مستحيل.

ورد الأذى بمثله ليس فى طاقتها ولا فى إمكانها.

والانتقام منه بخيانته ليس فى طبعها.

لم يبق إلا أن تقر بما لم تفعله لتنتهى الدائرة المفرغة.

وتجمع كل شجاعتها وبؤسها لتقول فى صوت مرتجف: نعم.. لقد فعلتها.

ويتوقف السـوط فى يد الجبار ويصـفر وجهه ويتندى جـبينه بالعرق البارد ويتمتم فى رعب وكأنه يتمثل الصورة لأول مرة.

وهؤلاء أولاد زنى.. أولاد سفاح؟

فتقول بصوت ميت:

نعم..

فيغمغم وشجاعته تهرب منه مع كل كلمة..

- ولم فعلت ذلك.. لم خنتني مع كل هؤلاء الرجال؟

فتقول في آلية ودون أن تفكر:

لأنهم كانوا أجمل وأرق وأنبل وأكثر رجولة.

وتطأطئ رأسها في الأرض وقد أدركت أن نهايتها قد حانت.

ولقد كانت النهاية قد حانت بالفعل ولكن ليس نهايتها.

فقد سقط السوط من يد الجبار.. وتجمد الكلام في حلقه.. واكتسى وجهه بلون التراب.. وأمسك صدره من الخفقان وكأنه سيبصق قلبه مع كل خفقة ثم سقط فاقد النطق بسكتة قلبية.

انسحق الجبروت بالهوان كما تنسحق المادة بالمادة المضادة وتتبدد في فضاء الكون.

وانفجرت ذرة اليورانيوم.

الخـــروج

كان يزدرد الطعام كأنه يزدرد كـرات من العجين يلقى بها فى جوفه دون تلذذ وكان الهواء راكـدا ثقيلا.. وكل شىء راكد ثقيل.. وصـفحـة النهـار تبـدو كليل بلا نجـوم.. ولم يكن يدرى كم من الوقت قد مـضى عليه وهو جالس فى كـرسيه فى مـقهى الروف بأعلى الـبـرج.. ربما بضع سـاعـات وهو يجلس نفس الجـلسـة لم يحرك أصـبعا.. وربما بنفس النظرة الذاهلة المحملقـة فى الهواء دون أن يختلج له جفن وكأنما تسمـرت نفسه وبات عقله مصلوبا على فكرة واحدة لا يبرحها.. أن يتخلص من حياته.

مريض بلا شفاء يتنقل من طبيب إلى طبيب ومن دواء إلى دواء ومن مـخـدر إلى مـخـدر ومن أمل إلى أمل.. ثم تذوى الآمـال ثم يكتشف أنه لم يبق له إلا الصبر.

وفى البيت وحده وفـراش بارد ومائدة عليها عشرات العـقاقير

وخطابات لا يجف حـبـرها تجرى سطورها الـلاهثة بنداء واحـد لا يهدأ:

سوزان.. سوزان..

عـودى.. أحـبك.. لا أسـتطيع أن أحـيـا بدونك.. ولا أن أمـوت بدونك.

حياتى ليل بدون ضوء عينيك.

ودائما ترسل الخطابات وتسـافر عبر البحـر.. ولا يأتى لها رد ولا يسمع لها صدى.

الزوجة الأوروبية عادت إلى بلادها بقلب ينزف وتركت وراءها قلبا آخر ينزف.

وفى ذلك الصمت الشبيه بالصراخ يعيش..

وفى تلك الغرفة المترفة الوثيـرة ذات الديكورات الغالية يتقلب.. وكأنما يتقلب على صـحراء موحشـة تسرح فيها الأفاعى.. ثم ينفد الصبر.. وتنقطع حبال الانتظار.

ولا تبقى فى ذهنه إلا فكرة واحدة.. أن يتخلص من حياته.

تأتيه الفكرة فى البداية زائرة ثم تصـبح طوافة ثم تلح عليه ثم تقيم فـى رأسه ثم تتحـول إلى حصـار ثم تغدو كـابوسا قـهريا يحتويه ويجثم عليه ويخنقه رويدا رويدا.

ويتحرك أخيرا.. فينظر إلى ساعته.

لقد مضت أربع سنوات وهو متجمد فى كرسيه كتمثال، وشـىء فى داخله ينخـر فى بنيانـه ويأكل جوفـه.. وبنظرة سريعـة عبـر

الشرفة يطل على الناس الذين يبدون كالنمل الصغير أسفل البرج.. وتتسمر عيناه على الهوة التى تفغر فاها تحت قدميه.

ثم فى لحظة يرمى بنفسه من شاهق.

ويتجمع الناس أسفل البرج.. وهم يحكون فى ذهول..

هناك رجل رمى بنفسه من أعلى البرج فسقط على كتفى عامل فقتله لساعته.. أما هو فلم يصب بخدش..

وحينما أفاق الرجل من صدمته وأدرك ما فعل انكب على شفرة حديد صدئة التقطها من الطريق وقطع شرايينه.

وحملوه إلى المستشفى وهو ينزف وأسعفوه.

وحينما فتح عينيه واكتشف أنه لم يمت بعد.. ابتلع زجاجة الأقراص المنومة كلها فى غفلة من الممرضة..

ولكنهم غسلوا معدته وأعطوه شيئا وأنقذوه.

وفتح عينيه من جديد ليجد أنه لم يمت بعد ثلاث محاولات قاتلة.. قتل فيها رجلا آخر ولكنه لم يمت.. وسقط مغشيا عليه..

وفى النوم وبين لحظات الخدر وفيما يشبه الرؤيا شاهد الرجل نورا وسمع صوتا يقول له:

- ماذا فعلت بنفسك؟

- أردت أن أقتل نفسى لأستريح.

- ومن أين لك العلم بأنك سوف تستريح. أعلمت بما ينتظرك بعد الموت؟

- إنه على أى حال أفضل من حالى فى الدنيا.

– هذا ظنك.. ولا يقتل الناس أنفسهم بالظن.

– وماذا كنت أستطيع أن أفعل.. وماذا بقى لى؟

– أن تصبر وتنتظر أمرنا..

– صبرت.

– تصبر يوما آخر إلى غد.

– سيكون غدا مشئوما مثل سالفه.

– كيف علمت.. هل أنت الذى خلقت الأيام.. هل أنت الذى خلقت نفسك؟

– لا.

– فكيف تحكم على ما لا تعلم وكيف تتصرف فيما لا تملك؟

– هذا عمرى وقد ضقت به.

– أتعلم ماذا نخفى لك غدا؟

– لا.

– إذن فهو ليس عمرك.

– لا أريد أن أعيش.. خلوا بينى وبين الموت.. دعونى.. ارحمونى.

– لو تركناك فما رحمناك.. إنما نحول بينك وبين رغبتك رحمة منا وفضلا ولو تخلينا عنك لهلكت.

– يا مرحبا بالهلاك.. ما أريد إلا الهلاك.. يا أهلا بالهلاك.

– لن يكون الهلاك رقدة مطمئنة تحت التراب كما تتصور.

– أريد أن أخرج مما أنا فيه وكفى.

- ولو إلى النار؟

- وهل هناك نار غير هذه؟

- أتصورت أنه لا وجود إلا لما يقع تحت حسك من جنة ونار.. أظننت أنه لا جنة ولا نار إلا نعيمكم وعذابكم.. أظننتنا فقراء لا يتسع ملكنا إلا لهذا العالم.. أتصورت أنه ليس عندنا لك إلا هذه الشقة في المعادى.. وليس عند رب العالمين غير هذه الكرة الأرضية المعلقة كذرة غبار في الفضاء.. بئس ما خيل لك بصرك الضرير عن فقرنا.

- ضقت ذرعا مما أنا فيه.. انسدت أمامي المسالك.. انطبقت السماء على الأرض.. اختنقت.. أريد الخروج.. أريد الخروج.

- ألا تصبر لحظات أخرى.. أترفض عطيتنا في الغد قبل أن تراها؟

- رأيت منها ما يكفيني.

- هذا رفض لنا ويأس منا واتهام لحكمتنا وسوء ظن بتدبيرنا وانتقاص لملكنا.. بئس ما قررت لنفسك.. اذهب.. رفضناك كما رفضتنا وحرمناك ما حرمت نفسك.. خلوا بينه وبين الموت..

وفي تلك الليلة شنق الرجل نفسه بملاءة الفراش.. ومات في هذه المحاولة الرابعة.. وفشلت كل الإسعافات في إنقاذه.

وجاء الغد..

فطلعت صفحات الجرائد الأولى بخبر مثير عن اكتشاف علاج جديد حاسم للمرض الذي كان يشكو منه.

وجاءت ســوزان تدق بابه فى شوق وفى يدها بضع زجـاجات من هذا الترياق الجديد وقلبها يطفح بالحب والأمل.

ولكنه كان قد ذهب.

لم ينتظر العطية.

ظلم المعطى والعطية وظلم نفــسه وظلم الغد الذى لم يره واتهم الرحيم فى رحمته وأنكر على المدبر تدبيره.

وخرج..

إلى حيث لا رحمة.. ولا عودة..

مخـــالى

على ناصية ثلاثة شوارع، وفى ميدان كـبير معروف تقع بقالة كبيرة يعرفها رواد الليل بأنها آخر بقعة مضيئة تنطفئ فى القاهرة ويمرون عليـها فى ليالى الصفـاء ليمضوا فـيها دقائق يخـرجون بعدها وتحت إبطهم لفات من الورق مثـقلة بالسجق، واللحم البارد والزجاجات الطويلة الحمراء.. تلك هى بقالة مخالى التى تنفرد بين مئات البـقالات التى تمتد على طول الميدان بأنهـا تكاد تحتوى على كل شىء.. فأنت تجـد فيهـا إلى جانب الزيتـون والجبن والشاى.. الليف والمغـات والويسكى.. والأسـبـرين وورق اليانصـيب حـتى الدجـاج المذبوح.. هذا عدا واجـهـة أنيقـة عند البـاب تتلألأ فـيهـا زجاجـات من كل الجنسيات من الزبيب القـبرصى إلى الشمبـانيا الفرنسية المعتقة..

ولعل أغرب ما تضـم هذه البـقالة بين بضـائعهـا هو مخالى بابا ينى صاحبـها ومديرها.. فهذا الإنسان القـصير البطين ذو الرأس

المكور بضاعة فريدة.. بضاعة خليط من كل الجنسيات.. فأنت لا تدرى هل هو شامى أم أرمنى أم يونانى أم مالطى أم إيرانى.. وكل ما تعرفه أنه أمامك مصرى.. وأما ميخاليدس يونانى وأمام مولستانا إيرانى وأمام ينى أرمنى.. وهو يدير كل هذه السفارات العالمية المتجمعة فى شخصيته الفذة بلسان يتحدث بأكثر من خمس لغات فى فصاحة وطلاقة.. فيخيل إليك أنه درس فى جامعات الدنيا، وهو لم يدرس شيئا ولا يعرف من هذه اللغات إلا الكلمات القليلة التى تخص المكرونة والسردين وتتناول البيع والشراء والتعامل والمجاملات الرقيقة.

وشىء آخر يخلق بينه وبين البضاعة التى يبيعها صلة وثيقة.. رأسه المكور الأصلع الذى يبدو فى لون الجبن الفلمنك وعيناه الخضراوان اللتان تشبهان زيتونتين غضتين، وأنفه الطويل الذى يشبه السجق، وجبهته التى ذهب لونها من البرص.. فأصبحت كشريحة لحم الخنزير، وفمه العريض الذى استطال من كثرة الابتسام المصطنع للزبائن فأصبح كفم الضفدعة وجسمه السمين القصير الذى يشبه برميل الخل القبرصى.

ولكن مخالى بالرغم من هذا الشبه الوثيق بينه وبين بضاعته إنسان مثلى ومثلك. وهو فوق هذا جنتلمان، رقيق الحاشية دائم الابتسام يبتسم لكل مَنْ يلقاه طالما كان من زبائنه، ويقدم كرسيا لأصدقائه الذين يقرضهم بالربا آخر الشهر، ويمتص إيراداتهم فى أوله.. وإذا كنت ممَّنْ يشترون حوائجهم ومررت عليه.. فإنه

لا يدعك تمر فى سلام، بل يستقبلك بزوبعة من التحيات والبسمات.. ثم يميل على أذنك ويهمس بأن عنده اليوم نوعا من الجبن أعظم من شستر وفلمنك وهناكل وأنه ما عليك إلا أن تسير بضع خطوات وترفع هذا الغطاء.. وتذوق قطعة من هذا الشهد الأبيض حتى تؤمن بأن الحياة جديرة حقا بأن تحياها، يقول هذا ويجرك من يدك ويزيح غطاء البرميل الصغير ويقطع بطرف سكينه قطعة صغيرة مربعة من الجبن يقدمها إلى فمك، ثم يفتح فمه على آخره وأنت تتذوقها بلسانك ويهتف:

– فين دى من جبنة امبارح.. السما من الأرض يا حبيبى أنا جاييه مخصوص علشانك.

فلا يسعك حتى لا تفضح غباءك وجهلك فى التذوق إلا أن تقول: صحيح.. صحيح يا خواجا السما من الأرض. فيفرك يديه ويتناول ورقة كبيرة وهو يقول: كم أقة.. أقتين.. ثلاثة.. ويقطع بسكينه ولا ينتظر ترددك، وهكذا تجد نفسك بين طرفة عين وانتباهتها فى الطريق وفى يدك أقتان من نفس الجبن الذى اشتريته فى اليوم السابق.. وأنت لا تدرى كيف مثل عليك مخالى هذه الكذبة الكبيرة ونشلك هذا النشل الرقيق.. وهذه صناعة يتقنها مخالى إلى أبعد الحدود.. صناعة تفريغ جيوب الناس فى جيوبه بالحلال.

وفلسفة مخالى فى الحياة بسيطة.. ومستقيمة.. فهو يقول إن

كل شىء فى الدنيا يشتـرى بالمال.. ليس فقط المكرونة والسردين. بل أيضا المسكن والملبس والزوجة.. والأولاد والصحـة والراحة.. حتى الوقت له فى هذه الدنيا ثمن.. فإذا أردت أن تعيش وتستكمل لحياتك أسـبابها.. فابحث عن المال، وهو منطق سليم لا عـوج فيه يصب حياة صاحبه فى قالب سهل مستقيم لا عوج فيه أيضا.

وقد ورث مخـالى هذه الفلسفة فى دمـه من أجداده العظام من أسرة بابا ينى العريقة..

وأول أجداد هذه الأسـرة.. بابا ينى الكبير.. جاء إلى مـصر من اليونان فى ثورة الموره.. هكذا يقـول مخالى.. هرب وتسلل خـفية إلى سفـينة تشرع قلاعـها إلى مصـر، ودفع ثمن رحلته خـدمات للبحارة.. خدمات من كل نوع حـتى مسح الأحذية.. وحينما وضع قدمـه على أرض مصـر لم يكن يملك عـدا ذراعيـه مليمـا واحدا.. ولكنهما كانتـا ثروة كافية.. سرعان ما بادر إلى استـغلالها.. فهو يعمل جرسونا وبائع يانصيب وعاملا فى مصنع للكبريت وموردا فى مـصنع للأزرار وهو فى أثناء ذلك يضع القـرش على القـرش والمليم على المليم ويختـزن فى رأسه تجارب الحيـاة، ثم يفتح فى النهاية مقهى صغيرا يزوده بأسـباب الراحة والرفاهية.. فقد أدرك أنه يعيش فى شـعب من الكسالى.. المقهى فى حيـاته ضرورة من الضرورات التى يسعى إليها قبل لقمة الخبز.

ومن أرباح هذا المقهى يـشترى أسـرة وأولادا وتتكاثر الأسرة

من تلقاء ذاتهـا.. فتلد له أحفـادا وأحفادا وإذا بأسـرة بابا ينى قد أصبحت فى النهـاية كأخطبوط الماء لها عـشرات الأذرع ممتدة فى عشرات الأماكن..

فكرياكـو فى الإسكندرية يملك كـازينو على البـحـر، وينى فى المنصـورة صـاحب بـار.. وبنايوتى فى دمـيـاط يمـلك مـصنعـا للأحذية، وستاورو فى طنطا يملك محلا للساندويتش ومخالى فى القـاهرة يملك بقالة كـبـيرة.. وكلهم سـعداء لهم زوجـات وأولاد يمدون الأخطبوط بأذرع جديدة..

وليس مخالى هو الوحيد فى أسـرته الذى يكد ويكدح فزوجته كاترين تدير مشغلا للتريكو، وابنتـه ستلا تعمل فى مدرسة ليلية وتقف على طاولة الـعطور فى محـل شمـلا، وتعطى دروسـا فى البـيانو وتكتب على الآلة الـكاتبة فى أوقـات فراغـها وتجـمع من نشاطها إيرادا شهريا يربو على إيراد وزير.

تقول هذا للحـاج أحمد أحد أبناء بلدتك البلهـاء.. فيمط شفـتيه ويغمـغم. وإيه يعنى.. ده راجل درزى حشو جهنم.. وده يتـعمله حساب ده.. يقول هذا الحاج أحـمد الذى يسكن فى حارة البرابرة فى جحر تعاف سكناه الكلاب مع جيش من الحـشرات المستأنسة كالـنمل والصراصـير والبق والقـمل.. ويعول أسـرة من المرضى وذوى العـاهات تبـدأ بأمه المشلولـة، وأبيه المريض بـالروماتيـزم والزلال.. وتنتـهى بابنه المريض بالجـرب والقـراع، وطفله الوليـد

الذى دفنه منذ أيام، وتحار كيف ترد عليه، وأغلب الظن أنك تسكت وتقول فى نفسك.. حقا إن مخالى لم يخطئ حينما تخصص فى صناعة تفريغ جيوب هؤلاء المغفلين فى جيبه.. وهل يخطئ هذا الذى يرى حمارا فى الطريق فيمتطيه ويهز ساقيه؟

ولكن مالنا اليوم وكل هذا.. إن مخالى اليوم ليس فى الحالة التى يحسد عليها.. إنه ليتمنى لو أصبح الحاج أحمد أو حمار الحاج أحمد.. أو أى شىء غير مخالى التعس العاثر الحظ..

لقد تهدم الصرح الذى بناه كله، وزلزلت الحياة التى شيدها لبنة، لبنة من كده وعرقه.

لا.. لم تمت زوجته بالطاعون ولا أمه بالسرطان بل حدث ما هو أخطر من هذا وأخطر من البراكين والزلازل مجتمعة.. فقد سقط سقف المخزن الذى يحفظ فيه الخمور.. فأريقت ثلاثة براميل من النبيذ وبضع عشرات من زجاجات الويسكى.

ثلاثة براميل من النبيذ.. من دمه.. أريقت على الأرض.. شربها التراب وثمل بها. إنه ليود لو أنه فقد ثلاثة من أصابعه أو ثلاثة من أولاده أو فقد أهله جميعا، ولم يفقد برميلا واحدا..

ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى.. يهمس الرجل إلى نفسه وهو يذرع البقالة طولا وعرضا ويتلفت حوله بعينين كعينى الفأر.. ثلاثة براميل من النبيذ.. ويعد على أصابعه.. مائتى جنيه.. مائتى فرحة وابتسامة.. مائتى خفقة قلب تذهب إلى الأرض.. إلى

العدم.. ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى ياحفيد بابا ينى الذى كان يمسح الأحذية ويضع المليم على المليم ثم ينظر إلى عماله ويسبهم برطانة مالطية خالصة، ويحتقن وجهه من الغيظ حتى يصبح فى لون صندوق الكوكاكولا الجاثم بالباب.

كيف أعوض هذه الخسارة.. كيف أعوض هذا الدم المراق.. أطلق زوجتى وأصوم وأغش الخمور وأخصم نصف مرتبات العمال. وأرفع الأسعار وأسرق وأحتال.. إن كل هذا أفعله.. كيف أعوض خسارتى.. ويسرع هابطا إلى المخزن ويقف يتأمل ترع الخمر التى تملأ الأرض فى حسرة وهو يصر على أسنانه ويود لو ركع على ركبتيه ورشف هذا الدم الأحمر قطرة قطرة..

إن سقف المخزن قديم متهالك وقد سقط من ثقل العمال وهم يروحون ويغدون بأجسادهم السمينة المتخمة بجبنى وزيتونى.. كان يجب أن أشد إلى هذا السقف عوارض من حديد وأضع البراميل تحت الأركان، وأحفظ الزجاجات فى جوالات من القش وأتوقى المفاجآت بسوء الظن.. وأضع فى حسابى أن القدر يتغفلنى ويتآمر على بلاهتى.

لقد كان أبى يقول: إن الناس واحد من اثنين، إما لصا، أو.. مغفلا. والأفضل أن يكون الإنسان لصا.. وكان بمهارته يبيع الجوارب الرخيصة بأضعاف ثمنها بعد أن يزينها بالأكاذيب.. ومن هذه الأكاذيب بنيت بقالتى.. ولو كان معتوها مثلى يفقد ثلاثة

براميل من النبيذ كل يوم لمات جوعا.

ثلاثة براميل من النبيذ يا مـخالى.. ترى ماذا يقول بابا ينى إذا علم بهذه النكبة إنه يسب ويلعن عدة أيام مـتوالية إذا كسرت أمى زجـاجة مـاء.. أمى الكليلة البـصر.. ويرتـفع ضغط دمـه.. ويلزم الفراش إذا كـسر لوح من الزجـاج، أو مصبـاح كهربائى.. فـماذا يقول حينما يعلم أن ثلاثة براميل.. يا إلهى..

وخرج مـخالى من المخـزن إلى البقـالة، ثم عاد من البـقالة إلى المخزن، ثم عاد فترك المخـزن وفر إلى البقالة وظل يتردد من مكان إلى آخر حتى حل ميعاد عودته إلى البيت.. فغادر بقالته وسار فى الطريق وقد دفن يديه فى جيبه..

وراح يحـملق فـى وجـوه المارة ويهـمس.. ليس هـناك من يشاركنى أحزانى.. كلهم سعداء يهرولون فى الطريق بقلوب خالية ليس فيهم مَنْ فقد برميلا من النبـيذ.. ليس فيهم أحمق واحد مثلى تهدم على رأسه سقف قديم.

كان يجب أن أصلح السقف وأسد شـقوقه وأقتل العناكب التى تعشش فـيه وأحتـاط للبلاء قـبل نزوله وأترك الأخطاء يقع فيـها غيرى.

ثلاثة براميل..

ونظر مخالى إلى ترام قـد صعد الغوغـاء على سطحه، وأخذوا يتصايحون بالهتافات ويلوحون بعصيهم فى الهواء.. فلم يبد عليه

أنه أحس بشيء. ما شأنه بالسياسة. إن كل الأحزاب تشرب النبيذ وكل الحكومات تأكل الجبن وترفع الأسعار، وهذا كل ما يعنيه.

وإذا كانت له شكوى يرفعها إلى الحكومة.. فهي هذه المخازن المتداعية التي تهملها مصلحة التنظيم وتتركها تتهدم على براميل النبيذ.

نعم.. ثلاثة براميل من النبيذ تسببت في تلفها الحكومة.

ونظر في غيظ إلى عربات الترام، ثم عاد يفكر في مأساته من جديد..

إن بابا يني سيموت بالقلب إذا علم بالخبر.. سيصاب بالفالج، وتنفجر شرايين رأسه، وإذا أنكرت الحقيقة.. فإنه سيعرفها، وإذا قلتها بالتدريج.. فلن يسلم من وقعها.. وكاترين وستيلا وميشو وكل هؤلاء سيرمونني بالغفلة والغباء ويقولون إن مخالي الأبله بدد ثروة الأسرة..

مائتا جنيه كان من الممكن أن أضيف بها رفا جديدا إلى بقالتي، أو أضعها في البنك اليوناني، أو أرصدها للتأمين على الحياة في شركة أثينا أو أعطيها دوطة لابنتي ستيلا أو أشتري بها عربة لتوريد الطلبات إلى المنازل أو أعطيها رأس مال لميشو ليبدأ بها حياته أو حتى أنفقها. أنفقها على نفسي.. أما أن تضيع هكذا على الأرض فهذه نكبة.. مائتا جنيه تضيع في لحظة وأنا أبيع السيجارة في ربع ساعة لأكسب نصف مليم وأرشي كل فئة من

بضاعتى - حتى طابع البريد - بهالة من الابتسامات والنكات والثرثرة المسلية لأكسب زبونا قد يكون مفلسا، واستقطر حياتى بالعنت من جيوب خاوية.

مائتا جنيه.. إنى أشترى بها ذمة رجل شريف ورقبة رجل حر.. إنى أستأجر نصف حياة مخالى ببضعة قروش وعمالى يبيعون ذمتهم للزبائن مجانا.. والزبائن تدفع ثمن هذا الدجل من جيوبها أضعاف ثمن البضاعة.. إن مائتى جنيه تسير أمة..

لقد بدأت حياتى كلها بخمسة جنيهات. اشتريت عدة ياردات من القماش وسرت أنادى عليها فى دروب بولاق.. أصعد إلى الدور السابع لأبيع مترا من البفتة.. وأهبط إلى البدروم لأبيع منديلا من الدمور فلما أصبح إيرادى ستة جنيهات.. اشتريت حزمة من اليانصيب وشخاشيخ ونظارات.. فلما قفز إيرادى إلى عشرة.. تزوجت وكسبت من الزواج مائة جنيه دوطة.. ففتحت محلا لبيع السجاير وأنجبت ثلاثة أولاد رفعوا رأس مالى إلى مائتى جنيه.. ففتحت بقالة صغيرة كبرت مع الأيام حتى دخلها الويسكى والروم والنبيذ.. ففتحت مخزنا، ورصيدا فى البنك.. وأمنت على حياتى المشئومة، وكل هذا من خمسة جنيهات.

فماذا كان يحدث لو أنى بدأت بمائتى جنيه.. إنى كنت أصبح كوتسيكا.. كوتسيكا..

ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى..

لو كنت أعلم لشـــربتـــها فـــي جوفي.. وكنت عـلـى الأقل فقـدت الرشد فلـم أحس بهذه الآلام.. أو فقـدت الحيـاة فاسـترحت.. إن ثلاثة براميل تسكر ألف رجل.. تفرغ ألف جيب.. تسعد ألف قلب.. تكسب ألف زبون.. ليتني مت قبل هذا.

وهز رأسه في حســرة واخترق الميدان الغـاص بالعربات، وهو مازال يـفكر في براميله.. ودوى بوق ســيارة.. ونفخ شــرطي في صفارته بشدة.. ولكن مخالي لم يســمع شيئا ولم يحس إلا بلطمة معدنية عنيفة توقعه على الأرض.

وحمل المسكين إلى المستشفى وهو يهذي..

ثلاثة براميل.. ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالي..

الفهـرس

الصفحة

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢٩١٩
الترقيم الدولى
977 - 08 - 1195 - 5



قطاع الثقافة



